البلاغة العربية (١)

علم البديع

أزهار الربيع في فنون البديع

أ.م.د. حمد الله عبد الحكيم محمد

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

كلية الآداب- قسم اللغة العربية وآدابها

- **بيانات الكتاب**

الكلية: كلية الآداب/ اللغة العربية وآدابها.
الفرقة: الأولى.
المقرر: علم البديع
التخصص: قسم اللغة العربية وآدابها.
عدد الصفحات: مائة وسبعون صفحة.
كود المقرر: ع ر ب ١٢٥

قال البديع -سبحانه وتعالى-:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ

(سورةالبقرة:١١٧)

مقدمة

الكتاب يلقى الضوء علي الدرس البلاغى فى علم من علومها وهو علم البديع الذى ظل لفترات ينظر إليه الدرس البلاغى علي أنه لون من التزيين والتحسين أو وضع اللمسة الأخيرة بعد مراعاة التركيب والصورة، ولكن هذا يحتاج إلي نظر لأن قيمته أعلي من هذه النظرة الجائرة، وما يقدمه البديع لا يقل أهمية عن علمى المعانى والبيان؛ فلكل طريقته ولكل منهجه فى إبراز جماليات النصوص، وبيان أسلوب الأدباء والشعراء فى عرض فنونهم نثرية كانت أو شعرية.

وتبين الدراسة طريقة تطور المصطلح البديعى منذ نشاته علي يد الشعراء مرورا بدور ابن المعتز وجهوده ثم الجاحظ وقدامة بن جعفر وأبوهلال العسكرى وابن رشيق القيروانى وعبد القاهر الجرجانى وابن مالك وابن أبى الإصبع المصرى والسكاكى والقزوينى، وأصحاب البديعيات؛ كالأربلى والبيروتى والساعاتى وغيرهم.

كما يعرض لتطور فنون البديع فى فترات أصبح البديع يستوى مع مصطلح البلاغة وتداخل فنون البيان والمعانى معه، ثم نعرض لتقسيم السكاكى للمحسنات، واستقرار الدرس البلاغى ليصبح البديع قسما من أقسام البلاغة فى القسم الثالث من كتاب الإيضاح للخطيب القزوينى.

وتناول الكتاب عرض الفنون المعنوية؛ كالطباق والمقابلة والتورية والتناسب ومراعاة النظير واللف والنشر والتوجيه وغيرها، كما عرض للفنون اللفظية؛ كالجناس والسجع ورد العجز علي الصدر وغيرها

كما عرض لأساليب أخري؛ كالاقتباس والتضمين والحل والعقد وغيرها

وبهذا نضع لدي القارئ صورة من صور فنون البديع التى كان ينظر إليها فى القديم علي أنها ألوان من المحسنات والزينة العرضية، ولكنها فى الحقيقة لا تقل أهمية عن دراسة المعانى والتراكيب ودلالاتها والصورة البيانية لما لها من قيمة فى لفت الانتباه وروعة التعبير وصدق التجربة التى تعبر عما يجول فى خاطر المبدع، ولها دور فى الكشف عن أسرار نفسه وأسباب تفضيل لون علي آخر.

د.حمد الله عبد الحكيم

التمهيد

نبذة عن تطور المصطلح البديعي

البديع فى معاجم اللغة: بدع الشىء يبدعه بدعًا، وابتدعه أنشأه وبدأه، والبديع والبِدع: الشىء الذى يكون أولًا. وفى التنزيل: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ) (الأحقاف:٩) أى: ما كنت أول من أرسل فقد أرسل قبلى رسل كثيرون.

والبديع المبدع، وأبدعت الشىء اخترعته لا علي مثال سابق، والبديع من أسماء الله تعالي؛ لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شىء. قال تعالي: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (البقرة: ١١٧)؛ أى: خالقها ومبدعها فهو سبحانه الخالق المبدئ لا عن مثال سابق.

و(بديع) فعيل بمعني فاعل، كقدير بمعني قادر، وأبدع الأديب جاء بالبديع، وأتي به، وأبدعت الركاب إذا كلت، وحقيقته أنها جاءت بأمر حادث بديع، وتدور مادة بدع حول: الجديد المبتكر، والمحدث العجيب، والمخترع علي غير مثال سابق، والحسن الخلق.

البديع: (لغة): المخترع الموجد علي غير مثال سابق، وهو مأخوذ ومشتقٌ من قولهم – بدع الشىء، وأبدعه، اخترعه لا علي مثال.

والبديع (اصطلاحا): هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه علي مقتضي الحال ووضوح الدلالة.

مقتضي الحال فى علم المعانى، ووضوح الدلالة خاص بعلم البيان، وكل من البديع والعروض من العلوم التى تهتم بالناحية الصوتية والنغم والجرس.

"البديع: تزيين الألفاظ أو المعانى بألوان بديعة من الجمال اللفظى أو المعنوى، ويسمّي العلم الجامع لطرق التزيين"[1]

مراحل تطور البديع

١- دور الشعراء فى ظهور مصطلح البديع

أطلق مصطلح البديع فى هذه الحقبة علي الشعر المحدث الذى أتي به شعراء العصر العباسى وهؤلاء الشعراء هم أول من أطلق هذا المصطلح علي الشعر الجديد المتميّز عن سابقه بجمالية التعبير وحداثته، ورد فى كتاب الأغانى عن دور مسلم بن الوليد فى اختراع المصطلح وتطبيقه: أول من قال الشعر المعروف بالبديع، هو لقب هذا الجنس البديع واللطيف. وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائى فإنه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه. ومسلم كان متفنّنا متصرفا فى شعره؛ انظر إلي البديع فى مطلع قصيدته فى فتح عمورية لتعرف قدر ولعه بالبديع وهى أجود قصائده:

السَيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ فى حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ
بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ فى مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ

كما كثر البديع فى شعر مسلم بن الوليد حتي أولع به فى شعره واشتهر بإجادة المدح من مثل قوله فى مدح يزيد بن مزيد:

تَلْقَي المَنِيَّةَ فى أمْثَالِ عُدَّتِها كالسَّيفِ يَقْذِفُ جَلَمُوداً بِجُلْمود
تَجُودُ بالنَّفسِ إن ضَنَّ الجَوادُ بِها والجُودُ بالَّنفْسِ أقْصي غايةَ الجُودِ

[1] معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، وهبة المهندس، ص ٤٣.

وقد وضع مصطلحات لبعض المحسنات اللفظية والمعنوية من مثل الجناس والطباق.

٢- دور الكُتاب فى تطور المصطلح

نسب إلي أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) وضع مصطلح البديع؛ فقد ورد فى كتابه (البيان والتبيين)، قوله: "والبديع مقصور علي العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت علي كل لسان، والشاعر الراعى كثير البديع فى شعره، وبشار حسن البديع، والعتابى يذهب فى شعره فى البديع مذهب بشار"[١].

وكما كانت نشأة المصطلح عند الشعراء فقد نهض ابن المعتز بوضع كتاب ينتصر فيه للعرب، وتتجه جملة الآراء إلي ربط اسم البديع ونشأته ووضعه بـ (عبد الله بن المعتز العباسى) ت سنه ٢٩٦ هـ فى كتاب أسماه (البديع) وقيل إنه ألفه سنة ٢٧٤هـ ردا علي من زعم من معاصريه أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصارى وأبا نواس هم السابقون إلي استعمال البديع فى شعرهم.

وقيل واضع هذا العلم لأنه أول من أفرده بدراسة مستقلة، لكنها لم تكن خالصة لفروع البديع بل اختلط بعلم البيان. يقول ابن المعتز عن هدفه من تأليف الكتاب: "قد قدّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشّارا

[1] البيان والتبيين: ص ٥٨٤.

ومسلما، وأبا نواس ومن تقيّلهم، وسلک سبيلهم لم يسبقوا إلي هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتي سمى بهذا الاسم"[1]

ثم يقول: "وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلي شىء من أبواب البديع"[2]

وقد جعل ابن المعتز فنون البديع خمسة، هى: الاستعارة، والتجنيس، والطباق، ورد الأعجاز علي ما تقدمها، والمذهب الكلامى.

ولعل ابن المعتز قد أصاب فى نهوضه بهذا المهمة؛ لأن الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى والخطب العربية من قديمها حتي عصره والقرآن والحديث النبوى كل ذلک جرت فيه فنون البديع، وإن كان يطلق البديع هنا مساويا لمصطلح البلاغة فقد أورد فيه من علم المعانى والبيان أمثلة وشواهد وإنما البديع الذى استقر بعد ذلک كان يختلف جملة وتفصيلا عما جمعه ابن المعتز؛ وإلي ذلک يشير د. شفيع السيد؛ حيث يقول: "وليس لكلمة البديع التى جاءت فى عنوان الكتاب صلة بما سماه البلاغيون فى العصور المتأخرة (علم البديع) ... وإنما المقصود بها ألوان طريفة من التعبير لم تكن شائعة مألوفة فى استعمالات الشعراء والكتاب"[3]

---

[1] البديع، ابن المعتزّ، ص ٧٣ – ٧٤.

[2] السابق: ص٧٦.

[3] البحث البلاغى عند العرب: ص ٦٩.

وعلي كل فمحاولات ابن المعتز وتسميتة لهذه الكثرة بالبديع قاصدا الجديد المخترع من المعانى والألفاظ المزينة والمزخرفة لأقوال الشعراء فى تلك الفترة، يعد بمثابة المؤسس لظهور علم ثالث للبلاغة هو علم البديع

وجاءت إضافات فى هذا الفن إلا أنها ظلت قلقة غير مستقرة كمحاولات قدامة بن جعفر وهو من أشهر نقاد هذا العصر كان اهتمامه بالنقد ولما كانت البلاغة والنقد يكمل بعضهما الآخر أضاف قدامة إلي محاولة ابن المعتز فى علم البديع وإضافته جاءت فى كتابه (نقد الشعر). وكان قدامة كان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام فى أواخر القرن الثالث الهجرى، ت: ٣٣٧ هـ وقد درس فيما درس الفلسفة والمنطق وتأثر بهما تفكيرا ومنهجا فى كل مؤلفاته التى بلغت أربعة عشر كتابا فى موضوعات شتي من الأدب وغيره.

وقد بلغت المحسنات البديعية التى أوردها أربعة عشر فنا؛ وهى: الإشارة، الإرداف، التمثيل. التكافؤ، التوشيح، الإيغال، الالتفات، الترصيع، الغلو، صحة التقسيم، صحة المقابلات، صحة التفسير، التتميم، المبالغة.

ثم جاء أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٦ هـ) فى كتاب الصناعتين الذى ابتكر فيه ستة أنواع؛ هى: : التشطير، والمجاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطّف. وجاء علم البديع فى الباب التاسع من أبواب الكتاب وقسمه إلي خمسة وثلاثين فصلا ، وأخرج منه أنواعا رأي أنها لا تدخل تجت مصطلح البديع، وقد بدأ المطلح يتجه إلي التخصص.

وقد كان يميل كسابقه ابن المعتز إلي فضل العرب فى هذا؛ يقول: "فهذه أنواع البديع التى ادعي من لا روايةَ له ولا درايةَ عنده أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها، وذلک لما أراد أن يفخّم أمر المحدثين؛ لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان فى غايةَ الحسن ونهايةَ الجودةَ"[1]

ثم أتي ابن رشيق القيروانى (ت: ٤٥٦ هـ) وكتابه (العمدةَ) ليفرد بابا بعنوان: باب المخترع والبديع، مشيرا إلي وفرةَ ضروب البديع، وذكر ثلاثةَ وثلاثين بابا منه هى: المجاز، الاستعارةَ، التمثيل، المثل السائر، التشبيه، الإشارةَ، التتبيع، التجنيس، الترديد، التصوير، المطابقةَ، المقابلةَ، التقسيم، التفسير، الاستطراد، التفريع، الالتفات، الاستثناء، التتميم، المبالغةَ، الإيغال، الغلو، التشكيک، الحشو وفضول الكلام، الاستدعاء، التكرار، نفى الشيء بإيجابه، الاطّراد، التضمين والإجارةَ، الاتساع، الاشتراک، التغاير.

ثم أسامةَ بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) فى كتابه (البديع فى نقد الشعر) جمع خمسةَ وتسعين نوعا علي غير فصل بين البيان والبديع والمعانى حتّي ليصحّ فيه ما قاله ابن أبى الإصبع "وإذا وصلت إلي بديع ابن منقذ وصلت إلي الخبط والفساد العظيم، والجمع من أشتات الخطأ وأنواعه من التوارد والتداخل، وضم غير البديع والمحاسن، كأنواع من العيوب، وأصناف من السرقات"[2]

---

١ الصناعتين، أبو هلال العسكرى، ص ٢٧٣.

٢تحرير التحبير، لابن أبى الإصبع ص ٩١.

وفى القرن الخامس الهجرى نلتقى بأبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ت: ٤٧١هـ واشتهر بكتاب دلائل الإعجاز الذى وضع فيه نظرية علم المعانى، وكتابه «أسرار البلاغة» الذى وضع فيه نظرية علم البيان.

فقد تكلم فى «أسرار البلاغة» عن ألوان من البديع هى: الجناس، والسجع، وحسن التعليل، مع الإشارة أحيانا إلي الطباق والمبالغة.

وحديثه عن هذه المحسنات ليس لأغراض بديعية بمقدار ما هو لأغراض بيانية، فقد أراد أن يثبت أن الجمال فيهما لا يرجع إلي جمال الألفاظ من حيث هى، وإنما يرجع إلي ترتيب المعانى فى الذهن ترتيبا يؤثر فى النفس، ويضرب لذلك مثلا من أمثلة الجناس وهو قول أبى الفتح البستى:

ناظراه فيما جني ناظراه أو دعانى أمت بما أو دعانى

ويعلق عليه بقوله: "قد أعاد- الشاعر- عليک اللفظ، كأنه يخدعک عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمک كأنه لم يزدک، وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذه السريرة صار التجنيس، وخصوصا المستوفي منه المتفق فى الصورة، من حلي الشعر، ومذكورا فى أقسام البديع"[1]

وجاء كلامه عنها فى معرض الاستدلال علي نظريته القائلة بأن الألفاظ ليست لها مزية ذاتية فى الكلام من حيث هى ألفاظ، وإنما المزية تأتى دائما من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها.

[1] أسرار البلاغة ص: ٤ – ٥.

ثم شهد البديع تقسيما إلي محسنات معنوية ولفظية أو مرة عند السكاكى، وهو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكى ت: سنة ٦٢٦هـ درس علوم الفلسفة والمنطق والفقه وأصوله واللغة والبلاغة يدرسها حتي أتقنها.

وللسكاكى مصنفات كثيرة أهمها كتاب مفتاح العلوم الذى قسمه إلي ثلاثة أقسام أساسية: قصر القسم الأول منها علي علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق بأنواعه، كما جعل القسم الثانى منه لعلم النحو أما القسم الثالث فخص به علم المعانى وعلم البيان، وملحقاتهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

كما أضاف إلي علوم البلاغة علوما تحتاج إليها كعلوم المنطق والعروض والقافية فقد أفرد لكل منها مبحثا خاصا وحيزا فى كتابه. وبذلک اشتمل كتاب المفتاح علي علوم الصرف والنحو والمعانى والبيان والمنطق والعروض والقافية والمحسنات البديعية.

شىء آخر أن السكاكى لم يأت فى كتابه المفتاح علي كل المحسنات البديعية التى كانت معروفة إلي عصره، وإنما اقتصر منها علي ستة وعشرين نوعا، لعلها كانت فى نظره أهم من غيرها أثرا فى تحسين الكلام لفظا ومعني، كما أنه لم يزد علي المحسنات جديدا من عنده.

والمحسنات البديعية المعنوية التى أوردها فى كتابه بلغت عشرين نوعا، هى: المطابقة، والمقابلة، ومراعاة النظير، والمزاوجة، والمشاكلة، والإيهام، واللف والنشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم،

والجمع مع التفريق والتقسيم، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتوجيه، والاعتراض، والالتفات، والاستتباع الذى سماه الفخر الرازى الموجّه، وسوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ، وتقليل اللفظ ولا تقليله مما يدخل فى بعض صور الإيجاز والإطناب.

أما المحسنات البديعية اللفظية التى أوردها فهى: الجناس، ورد العجز علي الصدر، والسجع، والقلب، والاشتقاق، والترصيع.

ولابن أبى الأصبع المصرى (ت سنة ٦٥٤ هـ) دور فى الدراسات البديعية، فقد وضع كتاب تحرير التجبير، وكتاب بديع القرآن.

وفى كتاب تحرير التحبير، أحصي ابن أبى الأصبع المصرى فيه من المحسنات البديعية مائة وعشرين نوعا، جمعها من سابقيه ومن بينها ثلاثون محسنا أضافها هو، وفى كتابه بديع القرآن عرض لما فى القرآن من محسنات بديعية بلغ بها مائة محسّن وثمانية. فكان كتب التحرير تنظيرا وبديع القرآن تطبيقا علي فنون البديع، ولم تخلو هذه الفنون من التداخل مع المعانى والبيان.

وفى هذا الوقت ظهرت البديعيات وهو نظم لقواعد البديع مع أمثلة، ومن هؤلاء على بن عثمان الأربلى ت: سنة ٦٧٠ هـ كان معاصرا لا بن أبى الأصبع، نظم قصيدة مدح من ستة وثلاثين بيتا فى كل بيت منها نوع من أنواع البديع التى كانت شائعة فى عصره. وقد وضع بإزاء كل بيت اسم المحسن البديعى الذى تضمنه، وكانت هذه باكورة محاولات نظم البديعيات، وومن نظموا البديعيات البيروتى أحمد البربير البيروتى الذى ولد فى دمياط ونشأ فى بيروت وتوفى فى دمشق سنة

١٢٢٦هـ والساعاتى ت: سنة ١٢٩٨هـ وهو الأديب الشاعر محمود صفوت الزيلع الشهير بالساعاتى ولد فى القاهرة سنة ١٢٤١هـ وغيرهم.

ثم جاء بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالک ت: سنة ٦٨٦ هـ ووضع كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع، لخص فيه كتاب مفتاح العلوم للسكاكى.

جعل هذه الفنون علما مستقلا بذاته سماه علم البديع، وبذلک مهد الطريق أمام البلاغة لتصبح متضمنة علوما ثلاثة: المعانى والبيان والبديع، ذكر منها أربعة وخمسين نوعا.

وأخيرا استقر الدرس البلاغى أو البديعى عند الخطيب القزوينى (ت:٧٣٤ هـ) فى كتابه الإيضاح فى علوم البلاغة،الذى قسم الكتاب إلي ثلاثة أقسام المعانى والبيان والبديع وسبقته مقدمة عن الفصاحة فى المفرد والكلام وبلاغة الكلام، وقد أفرد القسم الثالث لعلم البديع الذى تضمن عنده المحسنات المعنوية وهى: المطابقة، المقابلة، مراعاة النظير، تشابه الأطراف، التفويف، الإرصاد، المشاكلة، الاستطراد، المزاوجة، العكس، التورية، الاستخدام، اللف والنشر، الجمع، التفريق، التقسيم، الجمع مع التفريق، الجمع مع التقسيم، الجمع مع التقسيم والتفريق، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تأكيد الذم بما يشبه المدح، الاستتباع، التوجيه، الهزل الذى يراد به الجدّ، تجاهل العارف، القول بالموجب، الاطراد.

وفى المحسنات اللفظية تضمّن: الجناس، ردّ العجز علي الصدر، السجع، الموازنة، القلب، التشريع، لزوم ما لا يلزم، وأنهي الباب بكلام علي شرط الحسن فى البديع اللفظى.

وقد استقرت بكتابه البلاغة فى علومها الثلاثة واتجه العلماء إلي الشروح والمطولات والحواشى مما أوقف تمدد البحث البلاغى عند هذا، فتقعيد البلاغة أمر يحصر مالا حدود له فى حدود ضيقة، والبلاغة مناسبة اختيار التعبيرات للموقف اعتمادا علي الذق السليم والفطرة السوية.

الفصل الأول

فنون

البديع المعنوي

الطباق

ويسمي المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ

الطباق لغة: وطابقت بين الشيئين: جعلتهما علي حذو واحد وألزقتهما فيسمي هذا المطابق والمطبق[1]، وهو من طابق البعير فى سيره إذا وضع رجله موضع يده[2]، وفى القرآن الكريم ذكر السموات الطباققال تعالي: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) (الملک:٣)؛ أى: التى بعضها فوق بعض، وتدور مادة الطباق حول: الموافقة والمساواة والمناسبة.

الطباق أوالتضاد (اصطلاحا): وهى الجمع بين المتضادين أى معنيين متقابلين فى الجملة.

أنواع الطباق بين المعانى له صور، منها ما يلى:

(١) التناقض: كالوجد والعدم، والإيجاب والسلب.

(٢) التضاد: كالأسود والأبيض، والقيام والقعود.

(٣) التضايف: كالأب والابن، والأكبر والأصغر، والخالق والمخلوق.

الطباق الظاهر وأنواعه:

قد يقع بين اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين؛ ويكون بين اسمين؛ كقوله تعالي **(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ**

---

[1] العين: (مادة طبق).

[2] المثل السائر:٢٦٤/٢.

الشِّمَالِ)(الكهف:١٨)، وقوله تعالي: **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** (الحديد:٣)؛ وقول الشاعر:

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمى الذمار صبيحة الإرهاق

فطابق بين (حلو) و(مر).

أو بين فعلين، كقوله تعالي: **(تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)** (آل عمران:٢٦)، وكقول الإمام على -كرم الله وجهه-: (من رضى عن نفسه كثر من يسخط عليه)، وقول بشار بن برد:

إذا أيقظتك حروب العدي فنبه لها عمرا ثم نم

أو بين حرفين؛ نحو: قوله تعالي:**(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)**(البقرة:٢٢٨)، وقول الشاعر:

علي أننى راضٍ بأن أحمل الهوي وأخلص منه لا على ولا ليا

أو مختلفين؛ نحو: قوله تعالي **(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** (غافر:٣٣)

بين فعل واسم، ونبحث فى سر العدول عن الطباق بالصيغة نفسها.

ويسمي الطباق موافقة وتناسبا ومساواة؛ لأن المتكلم المطابق فى كلامه يوافق بين المعنيين المتقابلين، ويسوى بينهما، ومنه قول النبى صلّي الله عليه وسلّم: (خير المال عين ساهرة لعين نائمة)، ويسمي الطباق فيما مضي **طباقا ظاهرا.**

الطباق الخفى

وهو لون من ألوان الطباق يجمع بين لفظين متضادين بنهما لون من الخفاء مما يحتاج من المتلقى إلي تأويله.

نحو قوله تعالي: **(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَي الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)** (الفتح:٢٩)؛ لأن الشدة يقابلها اللين، واللين لين لضعف أو لقوة، فعدل إلي الرحمة لأنها لين لقوة، ويقابل الرحمة الغلظة وهى لن تفى بالغرض هنا؛ لأنه –تعالي– يقصد الشدة مع العدل والفضل، ولا يوجد ذلك إلا فى الشدة دون الغلظة التى لا رحمة ولا عدل فيها.

كالمطابقة بين أسماء الإشارة؛ نحو قول الشاعر:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

بين هاتان للقرب وتلك للبعد.

ومثل ذلك كقوله تعالي: **(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ۞ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)** (يس:١٥، ١٦) ومعناه: ربنا يعلم إنا لصادقون، فالرد علي مكذبيهم بأسلوب القصر: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) بقولهم: (رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) يهدم زعمهم مع التوبيخ لما ذكروا لهم من آيات بينات لا ينكرها إلا جاحد؛ لأن أساس الرسالة الأول هو الصدق، فإثبات الرسالة لإنسان يعنى إثبات الصدق له، فالرسالة والصدق أمران متلازمان، ومن هنا فُهم معني الصدق من قولهم: (رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

طباق الإيجاب وطباق السلب:

والطباق ينقسم إلي طباق الإيجاب كما ذكرنا، وإلي طباق السلب؛ وهو الذى يكون بين معنيين متضادين أحدهما مثبت والآخر منفى، أو بين أمر ونهى؛ كقوله

تعالي: **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** (الروم: ٦،٧)، وقوله: **(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)** (المائدة: ٤٤)

وقول الشاعر:

ونُنكر إن شئنا علي الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

بين (ننكر) و(لا ننكر).

وقول البحترى:

يقيض لى من حيث لا أعلم النوي ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

وبين (أعلم) و(لا أعلم).

وقول أبى الطيب:

ولقد عرفت وما عرفت حقيقة ولقد جهلت وما جهلت خمولا

وبين (عرفت) و(ما عرفت)

وقول الشاعر:

خلقوا وما خلقوا لمكْرُمَة فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

بين (خلقوا) و (وما خلقوا)، وبين (رزقوا) و(ما رزقوا).

ويعتمد طباق السلب والإيجاب علي تكرار اللفظ مرة أخري؛ ليفاجأ السامع بالتكرار تأكيدا علي رفض الفعل ذاته وقصدا لإظهار هذه المخالفة واضحة جلية.

إيهام التضاد

وهو الجمع بين لفظين يتضادان فى ظاهرهما ولكن معنيهما غير متضادة؛ لأنها لم تُستخدم فى حقائقها ولم تُنقل إلي معانٍ متضادة للمجاز، فالتضاد هنا تضاد ظاهرى فقط، فالطباق لا يقوم علي التضاد فى ظاهر الألفاظ وإنما يقوم علي التضاد فى المعانى؛ ومنه قول أبى تمام:

ما إن تري الأحساب بيضا وضحا إلا بحيث تري المنايا سودا

فى هذا البيت إيهام التضاد بين طهارة الأحساب وسواد المنايا.

وقوله أيضا فى الشيب:

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع

فى هذا البيت إيهام التضاد بين بياض الشيب ووقعه علي القلب.

وقول دعبل الخزاعى:

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحک المشيب برأسه فبكي

فى هذا البيت إيهام التضاد بين بياض الشيب والبكاء، فقد استعار الشاعر لظهور بياض الشيب فعل (ضحک فكان الضحک مقابلا للبكاء الحقيقى مقابلة تضاد.

ومنه قول قريط بن أنيف:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

و(الظلم) ليس بضد (المغفرة)، وإنما يوهم بلفظه أنه ضد.

ومن ذلک قول مسلم بن الوليد:

مستعبر يبكى علي دُمنة ورأسه يضحک فيها المشيب

وقول أبي تمام:

وتنظري خبب الركاب ينصها محيي القريض إلى مميت المال

وفنون الطباق سهلة فى إدراك الألفاظ صعبة عالية فى فهم مقاصدها، تحتاج من المتلقى إلي تقليب النظر مرة بعد مرة لإدراك مغزاها والوقوف علي أسرارها، وتنوع طرقها ليناسب كل لون ذلک المقام الذى ورد فيه؛ فمن طباق ظاهر إلي خفى، ومن طباق إيجاب إلي سلب، ومن طباق يوهم صاحبه توافق الألفاظ فى ظاهرها فإذا بحث فى المعانى وجد مفاجأة الإيهام فيزيد الأمر بلاغة وإمتاعا.

وقد أورد أبو هلال العسكرى أمثلة فى جماليات الطباق ودوره فى صواب المعني لنقد أبى بكر بن دريد لشاعر قال:

طرقتک عزّة من مزار نازح يا حسن زائرة وبعد مزار

ثم قال أبو بكر لو قال: (يا قرب زائرة وبعد مزار) لكان أجود، وكذلک هو لتضمّنه الطّباق"[1]، وهذه طريقة من طرق نقد النص الأدبى مع بيان الأبلغ والأوفق للسياق والنفس.

[1] الصناعتين: ص ١٣٩.

المقابلة

المقابلة: (لغة): مِن قابل الشيء بالشيء مقابلةً وقِبالًا؛ أى: عارضه، والمقابلة: المواجهة، والتقابل مثلُه، قال تعالي عن حال أهل الجنة: (إِخْوَانًا عَلَي سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)(الحجر: ٤٧).

واصطلاحا: أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها علي الترتيب.

والمقابلة أكثر ألفاظا من الطباق؛ لأن الطباق بين كلمتين أما المقابلة فهى عدد من الكلمات المتقابلة، فقد تكون:

- **مقابلة اثنين باثنين:** نحو قوله تعالي: **(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** (التوبة:٨٢)، وقول النبى صلي الله عليه وسلم: **(إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه)**، فالمقابلة بين يكون فى شيء وهو ضد ينزع من شيء، وزانه وهو ضد شانه.
- ومنه قول البحتري:

فإذا حاربوا أذلّوا عزيزا وإذا سالموا أعزّوا ذليلا

ومثله قول الشاعر:

وإذا حديث ساءنى لم أكتئب وإذا حديث سرنى لم أسر

فالمقابلة بين السوء وهو ضد السرور، واكتئب وهو ضد أُسر.

وقول الشاعر:

فوا عجبا كيف اتفقنا فناصح وفى ومطوى علي الغل غادر

فالمقابلة بين الغل وهو ضد النصح، والغدر وهو ضد الوفاء.

- **مقابلة ثلاثة بثلاثة:** نحو قول أبى دلامة:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

والمقابلة بين: أحسن/ وأقبح، والدين/ الكفر، والدنيا(المال)/ الإفلاس.

وقول أبى الطيب المتنبى:

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

والمقابلة بين: الجود/ البخل، يفنى/ يبقى، مقبل/ مدبر

- **مقابلة أربعة بأربعة:** نحو قوله تعالي: **(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَي وَاتَّقَي ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَي ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَي ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَي ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَي ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَي)** (الليل:٥-١٠) واتقي/ زهد.

وقول **جرير:**

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

قابل بين باسط وقابض ، وخير وشر ، وفيكم وعنكم ، ويمينه وشماله.

مقابلة خمسة بخمسة: نحو قول الشاعر:

بواطئ فوق خدّ الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

فالمقابلة هنا بين «واطئ وطائر» لأن الواطئ هو الماشى علي الأرض، والطائر هو السائر فى الفضاء، فقد حسنت المطقابلة لتناسبها بين كل ما هو مرفوع وكل ما هو مخفوض؛ فقد قابل بين: الواطئ/والطائر، فوق/ تحت، خدّ/ ذيل، الصبح/ الليل، مشتهر/مكتتم

وقول صفى الدين الحِلى:

كان الرضا بدنوى من خواطرهم فصار سخطى لبعدى عن جوارهم

كان/ فصار، الرضا/ سخطى، بدنوى/ لبعد، من/ عن، خواطرهم/ جوارهم

وذكروا قول أبى الطيب المتنبى، وفيه نظر:

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وهذا علي أساس أن" لى" تُضاد "بى"، ولكن الخطيب لا يرتضى ذلك قال: وفيه نظر.

- **مقابلة ستة بستة** ومنها ما ينسب إلي عنترة بن شداد قوله:

علي رأس عبد تاج عز يزينه وفى رجل حر قيد ذل يشينه

مقابلة الشطر الأول للشطر الثانى؛ لأن فى الأول ست كلمات وفى الثانى ست كلمات مقابلة لها.

"والبلاغيون مختلفون فى أمر المقابلة، فمنهم من يجعلها نوعا من المطابقة ويدخلها فى إيهام التضاد، ومنهم من جعلها نوعا مستقلا من أنواع البديع، وهذا هو الأصح، لأن المقابلة أعم من المطابقة.

وصحة المقابلات تتمثل فى توخى المتكلم بين الكلام علي ما ينبغى، فإذا أتي بأشياء فى صدر كلامه أتي بأضدادها فى عجزه علي الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثانى بالثانى، لا يخرم من ذلك شيئا فى المخالف والموافق. ومتي أخل بالترتيب كانت المقابلة فاسدة."[1]

[1] علم البديع: عبد العزيز عتيق، ص ٨٦.

التورية

التورية (لغة): مصدر وريت الخبر توريةً إذا سترته وأظهرت غيره كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر.

وهذا المعني اللغوى له علاقة وثيقة بالمعني الاصطلاحى، لأن الخفاء صفة من صفات التورية، وتسمي التورية بالإيهام أيضا.

وهى فى الاصطلاح: أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجازا؛ أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية؛ فيريد المتكلم المعني البعيد ويورى عنه بالمعني القريب؛ فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريد المعني القريب وليس كذلك ولأجل هذا سمى هذا النوع إيهاما.

وقال الزمخشرى- وهو حجة فى هذا العلم-: ولا نري بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ولا أعون علي تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه وكلام صحابته رضى الله عنهم أجمعين فمن ذلك قوله تعالي:

(الرَّحْمَنُ عَلَي الْعَرْشِ اسْتَوَي)(طه:٥)

لأن الاستواء علي معنيين؛ أحدهما: الاستقرار فى المكان وهو المعني القريب الموري به الذى هو غير مقصود؛ لأن الحق تعالي وتقدس منزه عن ذلك، والثانى الاستيلاء والملك وهو المعني البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور.

وقال تعالي: **(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّي يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ**

وَهُمْ صَاغِرُونَ) (التوبة:٢٩) وموضع التورية فى لفظة (اليد) والمعني القريب العضو المعروف، ولكن المعني البعيد المراد هو الذلة.

يقول الزمخشرى: "قوله: (عن يد) إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ فمعناه علي إرادة يد المعطي حتي يعطوها عن يده، أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة إذ أن من أبي وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، ولذلک قالوا: أعطي بيده، إذا انقاد وأصحب- أي: سهل بعد صعوبة- ألا تري إلي قولهم: نزع يده عن الطاعة، كما يقال: خلع ربقة الطاعة عن عنقه."[1]

وقوله تعالي: **(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلَالِکَ الْقَدِيمِ)** (يوسف:٩٥) فانظر إلي كون الضلال له وجهان، وهما الحب وضد الهدي وكيف أهمل أحد الاحتمالين، وهو الحب، واستعمل دلالته علي ضد الهدي، فالمعني القريب الضلال علي ظاهره وهو ضد الهدي أى ضالا متوهما عودة يوسف بعد كل هذه السنين، والمعني البعيد إيثار يوسف عليهم وحبه له، والمراد ما أهمل وهو الحب لا ما استعمل وهو لفظ الضلال.

ومنه قول النبى حين سئل فى مجيئه عند خروجه إلي بدر؛ فقيل لهم: ممن أنتم، فلم يرد أن يعلم السائل؛ فقال: "**من ماء**"، أراد أنا مخلوقون من ماء فوري عنه بقبيلة يقال لها ماء.

[1] الكشاف:٢/ ٢٦٢.

ومنه قول أبى بكر رضى الله عنه فى الهجرة وقد سئل عن النبى: من هذا؛ فقال: **"هاد يهدينى السبيل"** أراد أبو بكر رضى الله عنه هاديا يهدينى إلي الإسلام فوري عنه بهادى الطريق وهو الدليل فى السفر.

وكقول الإمام علي رضى الله تعالي عنه فى الأشعث بن قيس، (أنه كان يحرك الشمال باليمين)، فالشمال معناها القريب ضد اليمين، والبعيد جمع شملة، ولولا ذكر اليمين بعده لما فهم منه السامع معني اليد الذى به التورية.

وقول أبى الطيب المتنبى:

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفَ كَفُّهُ وَكَانَا عَلَي الْعِلاَّتِ يَصْطَحِبَانِ

كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِى

والعلات: الاختلاف، فإن شبيبا الخارجى الذى خرج علي كافور الإخشيدى وقصد دمشق وحاصرها وقتل علي حصارها كان من قيس، ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب وأخبار ذلک مشهورة، والسيف يقال له "يمانى" فى نسبته إلي اليمن، ومراد المتنبى من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه، فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمانى وصاحبک قيسى ولهذا جانبه السيف وفارقه.

والشاهد هنا: رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِى القريب عدم اجتماع كف شبيب وسيفه، والبعيد موته ابتعاده عن المعارک.

والتورية هنا دقيقة جميلة تخيرها الشاعر لتناسب غرضه وموقفه من كافور الإخشيدى الذى تحول بعد المدح إلي الهجاء.

ويقول البحترى:

ووراءَ تَسْدِيَةِ الوِشَاح مَلِيَةٌ بالحُسْن تَمْلُحُ فى القُلوبِ وتَعْذبُ

الشاهد فى قوله: (تملح) فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التى هى ضد العذوبة وهو المعني القريب الموري به، ويحتمل أن يكون من الملاحة وهو المعني البعيد الموري عنه، وقد تقدم من لوازمه علي جهة التبيين؛ قوله: مليئة بالحسن.

وقول الشاعر:

حملناهم طراً علي الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

طرا: جميعا، والدهم: له معنيان أحدهما قريب: وهو الخيل الدهم السود، وليس مراداً، وآخر بعيد، وهو قيد الحديد وهو المراد.

ذكرتُ والكأس فى كفى لياليكم فالكأسُ فى راحةٍ والقلب فى تعب

التّورية فى كلمة (راحة)، والمعني القريب هو (الراحة ضد التعب)، والبعيد (راحة اليدّ) أى: الكف، وذكر الكف أشار إلي المعني البعيد؛ فى قوله: (الكّأس فى كفّى) ومثل ذلک قول أبى العلاء المعرى فى وصف الناقة:

وحرفٍ كنونٍ تحت راءٍ ولم يكن بدالٍ يؤم الرَّسم غيِّره النقط

فمن سمع هذا البيت توهم أنه يريد براء ودال حرفى الهجاء؛ لأنه صدر بيته بذكر الحروف وأتبع ذلک بالرسم والنقط، وهذا هنا هو المعني القريب المتبادر أولا إلي ذهن السامع، والمراد غيره وهو المعني البعيد الموري عنه بالقريب؛ لأن مراده بالحرف الناقة وبحرف النون تشبيه الناقة به فى تقويسها وضمورها، وبراء اسم

الفاعل من رأي إذا ضرب الرئة، وبدال اسم الفاعل من دلا يدلو إذا رفق فى السير، وبالرسم أثر الدار، وبالنقط المطر.

ومعني هذا البيت: أن هذه الناقة لضعفها وانحنائها مثل نون تحت رجل يضرب رئتيها ولم يرفق بها فى السير؛ فهو غير دال وقد تقدم أن الدالى هو الرفيق، ويؤم بها دارا غير المطر رسمها، واجتماع هذه الأوصاف دليل علي ضعف الناقة؛ لأنها لو كانت قوية لما احتاجت إلي ضرب رئتيها وإلي الرفق بها مع شدة شوقه إلي ديار أحبابه وذلک باعث علي شدة السير.

وقول عمر بن أبى ربيعة:

أَيُّها المُنكِحُ الثُرَيّا سُهَيلاً عَمرَکَ اللَهَ کَيفَ يَلتَقِيانِ

هِيَ شامِيَّةٌ إِذا ما اِستَقَلَّت وَسُهيلٌ إِذا اِستَقَلَّ يَمانِ

وقوله: (عمرک الله)، دعاء، أى: سألت الله أن يطيل عمرک، والشاعر هنا ذكر الثريا وسهيلاً ليوهم السامع أنه يريد النجمين المشهورين؛ لأن الثريا من منازل القمر الشامية، وسهيلاً من النجوم اليمانية، وهو يريد صاحبته الثريا، وكان أبوها قد زوجها برجل من أهل اليمن يسمي سهيلاً، فتمكن لعمر أن وري بالنجمين عن الشخصين، ليبلغ من الإنكار علي من جمع بينهما ما أراد.

ومن ذلک قول أبى العلاء المعرى:

سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال

إِذَا صَدَقَ الْجَدُّ اِفْتَرَي الْعَمُّ لِلْفَتَي مَكَارِمُ لاَ تَخْفَي وَإِنْ كَذَبَ الخَالُ

فقد جمَع بين الجدّ والعمّ والخال، والمراد بالأوّل: الحظّ وبالثانى: عامّة الناس بالثالث: الظنّ، والجد هنا مشترک بين أبى الأب والسعد ومراده السعد، والعم مشترک بين أخى الأب والجماعة من الناس ومراده الجماعة، والخال مشترک بين أخى الأم والظن ومراده الظن.

وكقول سراج الدين الوراق:

أصونُ أديم وجهى عن أناسٍ لقاء الموتِ عندهُم الأديبُ

ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافي به لهم حبيب

وأراد هنا معني قريب وهو المحب، ومعني بعيد وهو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المعروف بأبى تمام.

يقول ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب عن التورية: "لأن هذا النوع أعنى التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوک الأدب إلي أن دخلوا إليه من باب التورية، فإن التورية من أغلي فنون الأدب وأعلاها رتبة وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول."

وفن التورية فن من الفنون التى تتميز بالخفاء علي غير مغالاة فيه؛ فجمالها فى كد الذهن وجذب الانتباه وتفاعل المتلقى، وبخاصة إذا عرف المعني القريب ثم وجد لهذا المعني معني آخر أشد تناسبا مع قول المتكلم، ثم إن التورية إذا طمست وصعب الوصول إليها صارت ضربا من الألغاز، ومواضعها لا يصح فيها الخفاء التام

إلا فى لحظات اللقاء بعدو أو تجنب الكذب ومع كل ذلک يظل اللفظ يحمل معنيين؛ ولكن السامع ينصرف عن المعني البعيد؛ ليفهم المقصود بالمعني القريب، ومراد المتكلم صرفه عن البعيد إلي القريب، إما استعراضا للمقدرة اللغوية أو لشيء آخر حسب المقام؛ فالمقام هو الذى يجعل المتكلم يختار هذا الأسلوب أو ذاک "ولا يحسن بلاغيا استخدام التورية إلا إذا دعا داع بلاغى يقتضيه حال المتلقى، وهذا الداعى مما يقصد لدي أذكياء البلغاء، كإخفاء المراد عن العامة وإشعار الخاصة من طرف خفى، وكالتعبير عن المقصود بكلام يتأتي معه الإنكار عند الحاجة إليه، وكاختبار ذكاء المتلقى والتأثير فى نفسه بما يعجبه من أداء فنى يستخدم فيه الأسلوب غير المباشر حتي الإلغاز، إلي غير ذلک من دواعى"[1]، وللتورية جمالها فى إيقاظ السامع وتنبيهه، وجذبه جذبا إلي ما يقول المتكلم ليكد ذهنه فى رسالته وهى بذلک تثير ذهن القارئ، وتشير إلي مقدرة الأديب وبراعته، وآفة هذه الفنون-البديعية كلها ومنها التورية- التكلف والكثرة؛ لأنها إذا كثرت جاءت بخلاف مايراد بها من الإمتاع والجمال.

تدريب

ويقول الشّابّ الظريف:

تبسّم ثغر اللّوز عن طيب نشره وأقبل فى حسن يجلّ عن الوصف

هلمّوا إليه بين قصف ولذّة فإنّ غصون الزّهر تصلح للقصف

[1] البلاغة العربية، عبد الرحمن الميدانى: ٢/ ٣٧٤.

التوجيه

التوجيه: "هو أن يكون الكلام محتملا لوجهين مختلفين كالمدح والذم، ومنهم من جعل منه احتمال الكلام لوجهين مُطلقًا سواء كان مدحًا أو غيره، أو وجهين من غيره مختلفين، وإن كان المراد أحدهما"[1].وهذه الدرجة من المساواة بين الأضداد لا يستطيع السامع الجزم بمعرفة مقصد المتكلم؛ لذا فمن تعريفاته: "هو أن يكون الكلام محتملًا للمدح والذم احتمالًا متساويًا"[2].

ذكر السيوطى فى شرح عقود الجمان عن أن أول من اخترع هذا الفن هو ابن أبى الإصبع المصرى وذكره فى باب التورية لما بين الفنين من الخفاء، وسمى بالإبهام. وهو فن من فنون البديع التى تحمل الخفاء، والتلاعب والمقدرة اللغوية علي تشتيت السامع بين نقيضين مدحا وهجاء، وتأتى عندما يكون الشاعرأو الأديب يريد أن يقول كلاما ذا وجهين تفننا أو هروبا من إثبات الخطأ عليه مع إرادته التعبير عما فى نفسه، ولذا عده ابن أبى الإصبع من المواربة: "هى مشتقة من الوَرَب بفتحتين، وهو العرق إذا فسد، كأن المتكلم أفسد مفهوم كلامه بما أبداه من التأويل، وذلک أن يقول المتكلم قولًا يتضمن ما ينكر عليه، فإذا حصل الإنكار استحضر بحذقه وجهًا من الوجوه يتخلص به، إما بتحريف كلمة أو تصحيفها أو زيادة أو نقص"[3]

---

[1] الحلة السيرا فى مدح خير الوري، ابن جابر الأندلسى: ص ٢٩٠.

[2] نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فخر الدين الرازى: ص ١٧٦.

[3] تحرير التحبير، ابن أبى الإصبع المصرى: ص ٢٦٨.

وعليه قوله تعالي: **(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)** (النساء: ٤٦) ؛ قال الزمخشرى: (غير مسمع) حال من المخاطب؛ أى: اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو وجهين:

يحتمل الذم؛ أى: اسمع منا مدعوا عليک بـ لا سمعت؛ لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع، فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلک اتكالا علي أن قولهم: "لا سمعت" دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب إلي ما تدعو إليه، ومعناه غير مسمع جوابا يوافقک فكأنک لم تسمع شيئا، أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه؛ فسمعک عنه ناب، ويجوز علي هذا أن يكون "غير مسمع" مفعول "اسمع"؛ أى: اسمع كلاما غير مسمع إياک؛ لأن أذنک لا تعيه نبوا عنه.

ويحتمل المدح؛ أى: اسمع غير مسمع مكروها، من قولک: "أسمع فلان فلانا" إذا سبه.

وكذلک قوله: (وراعنا) يحتمل "راعنا نكلمک" أى: ارقبنا وانتظرنا، ويحتمل سبة؛ وهى كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهى "راعينا"، فكانوا سخرية بالدين وهزؤا برسول الله -صلي الله عليه وسلم- يكلمونه بكلام محتمل؛ ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والاحترام.

ثم قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف جاءوا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعدما صرحوا وقالوا: "سمعنا وعصينا"؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر

والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء، ويجوز أن يقولوه فيما بينهم، ويجوز ألا ينطقوا بذلک، ولكنهم لما لم يؤمنوا به جعلوا كأنهم نطقوا به."[1]

ولذلک فالتوجيه أن يُؤتي بكلام يحتمل معنيين متضادين علي السواء كهجاء، ومديح، ودعاء للمخاطب، أم دعاء عليه، ليبلغ القائل غرضه بما لا يمسک عليه، كقول بشَّار فى خياط أعور (اسمه عمرو) صنع له قَباءً؛ فقال له الخياط علي طريق العبث به: سآتيک به لا يدرى أقباء هو أم دواج (مِعطف غليظ) ؛ فقال الشاعر: لئن فعلت لأقولن فيک بيتاً لا يعلم أحد ممن سمعه أدعوت لک فيه أم دعوت عليک؟ ففعل الخياط، فقال الشاعر:

خاط لى عمروٌ قَباءً ليت عينيه سواءً

والقَبَاءُ : ثوبٌ يُلبَسُ فوق الثياب أو القميص يشبه العباءة، فإنّ دعاءه لا يُعلم، هل له أم عليه، فما علم أحد هل أراد أن الصحيحة تساوى السقيمة أو العكس.

ومن هذا الفن قول أحدهم: كلما لاح وجهه بمكان كثرت زحمة العُيون إلي رُؤيته، وهذه الدهشة والعجب مدحا أو قدحا؛ هل هى لجماله أم لقبحه.

ويحكي أن محمداً بن حَزم هنأ الحسن بن سهل باتصال بنته بورَان بالخليفة المأمون العباسى مع من هنأه، فأثابهم، وحرمه: فكتب إليه إن أنت تماديت علي حرمانى، قلت فيک بيتاً لا يعرف أهو مدح أم ذم، فاستحضره وسأله؟ فأقرَّ، فقال الحسن: لا أعطيک أو تفعل، فقال:

بارک الله للحسن ولبوُران فى الختن

[1] الكشاف:١/ ٥١٨.

يا إمام الهدي ظفر ت ولكن ببنت من؟

والختن: أقارب الزوج، فلم يدر: ببنت من؟ ؟ – أفى العظمة وعلو الشأن ورفعة المنزلة أم فى الدناءة والخسة؟ ؟ – فاستحسن الحسن منه ذلک وأثابه.

يقول أبو الطيب المتنبى:

مَدَحْتُ قَوْماً وإنّ عِشْنَا نَظَمْتُ بهم قصائِداً من إنَاثِ الخَيْلِ والحُصُنِ

الحُصُن :جمع حصان، وهو الذكر الفحل من الخيل، يقول :مدحت قومًا لا يستحقون المدح — لشحهم وجهلهم— ولكن إن عشت غزوتهم بخيل إناث وذكور، جعل الخيل قصائد بدل القصائد التى مدحهم بها.

أى: مدحت قوما لا يستحقون المديح بقصائد من نظم، وإن عشت نظمت لهم قصائد من خيل، محاربا لهم ومغيرا عليهم، إما لأنهم لم يتجاوزه علي قدر مدحه، وإما لأنهم لا يستحقون ما هم فيه، وأنه أولي به منهم.

فيحتمل الكلام المدح بقصائد عظيمة تعظيما لهم أو بقصائد من الهجاء حربا عليهم.

وقول الشاعر:

يذكّرنيک الخير والشّرّ كلّه وفيک الحيا والعلم والحلم والجهل

فهذا البيت دال علي التوجيه بمعني أنه يحتمل أن يريد مدحه وأن يريد ذمه؛ لأنه صرح بأن فيه الخير والشر، وفيه الحلم والجهل، فيحتمل أن يكون المراد مدحه، ويحتمل أن يريد ذمه، فإذا كان الكلام علي الجمع بين خصال الخير والشر لم يعرف المتلقى مقصد المتكلم قدحا أو مدحا.

ولا يفك طلاسم التوجيه إلا أن يكشفها الشاعر بنفسه؛ فيقول فى البيت الذى يليه:

فألفاك عن مكروهها متنزّها وألقاك في محبوبها ولك الفضل

يقول بعد ذلك في هذا البيت إنه بريء عن مكروهها، ومنزه عنه، وأنه في محبوبها له الزيادة علي غيره في الصفات المحمودة، أزال ما يحتمله الأول من الذم، وأزال توجيهه الذي يحتمله،و"جلىٌّ أن هذا الفن البديعى يشد المتلقى؛ لأنه لا يقدم من محددات الدلالة ما يطمئن الذهن إلي معني بعينه، بل يدعه يلوب فى حيرة البحث عن الدلالة الحقيقية، وينطوى أيضًا علي التعجب المتأتّى من إحساس المتلقى بأن المنشئ قادرٌ علي عرض كلامٍ يشركه هو فى معرفة مفرداته، لكنه يجهل المُراد من مركبه، وفى جبلة الإنسان حُبٌ للألغاز والمبهمات"[1]

[1] المفصل فى علوم البلاغة العربية، عيسي على العاكوب: ص ٦٠٧.

تجاهل العارف

تجاهل العارف وهى تسمية ابن المعتز، وسماه السكاكى سوق المعلوم مساق غيره لنكتة؛ وهو عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم ليوهم أن شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبه به وفائدته المبالغة فى المعني؛ نحو قولك: أوجهک هذا أم بدر فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر إلا أنه لما أراد المبالغة فى وصف الوجه بالحسن استفهم أهذا وجه أم بدر ففهم من ذلک شدة الشبه بين الوجه والبدر.

وكالتوبيخ فى قول المرأة الخارجية(الفارعة بنت طريف علي أخيها الوليد):

أيا شجر الخابور مالک مورقا كأنک لم تجزع علي ابن طريف

فى الرثاء ينكر علي شجر الخابور عدم الجزع علي ابن طريف، لما رآه مورقا يانعا بدلا من أن يصيبه الإصفرار والضعف، وهو يعرف أن ذلک لن يحدث ولكن تساءل توبيخا له وربما تعريض لبعض البشر الذين نسوا فضل الرجل، ولم يبدوا مظاهر الحزن عليه وقد عم جوده عليهم.

والمبالغة فى المدح فى قول البحترى:

ألمع برق سري أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى

وقول الشاعر:

أثغرک يا هند أبدي ابتساما أم البرق سل عليه حساما

والبيتان السابقان الشاعر يعرف الأمر تماما ولكن يتجاهل كل هذا ليضفى علي المشهد جمالا وروعة، كأن الأمر قد اختلط عليه فلم يدرک الفرق بين جمالها وجمال الطبيعة الساحرة مبالغة فى وصف محاسنها.

ونحوه قول الشاعر:

أغَـرَّةُ إِسـمـاعـيلَ أم سُنَّةُ البَدرِ وَفَيضُ نَدي كَفَّيهِ أم باكِرُ القَطرِ

أو فى الذم كقول زهير :

وما أدرى وسوف أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

والتدله فى الحب؛ فى قول الحسين بن عبد الله:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلي من البشر

وقول الشاعر شهاب الدين التّلّعْفَرى (٦٧٥ – ٥٩٣) هـ / شاعر عراقى، نسبته إلي تل أعفر و مولده بالموصل:

أقولُ له علامَ تَميلُ عُجباً علي ضَعفى وقدُّکَ مستقيمُ

فقالَ تقولُ عنِّى مَيلٌ فقلتُ كذا لنا نَقَلَ النَّسيمُ

والتحقير منه ما جاء من أقوال المعاندين ومنهم أهل مكة فى حق النبى صلي الله عليه وسلم: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَي رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ)** (سبأ:٧) كأن لم يكونوا يعرفون عنه إلا أنه رجل ما؛ فقد جهلوهم مع كونهم عارفين بالنبي صلّي الله عليه وسلّم لغرض فاسد لهم لعنهم الله.

ومن قبلهم قوم نوح قالوا: (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّي حِينٍ) (المؤمنون:٢٥)، وقول الأقوام من بعد نوح: (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَي عَلَي اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون:٣٨)، وتتطابق أقوال المعاندين فى الإنكار مع المعرفة والعلم وظهور الدلائل والبراهين.

ومنه التعجب: نحو قوله تعالي: **(أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)**(الطور:١٥) هذه الآية فى سياق التعجب من أهل النار وقد عرضوا عليها، فتقول الملائكة أو يقول بعضهم لبعض"كنتم تقولون عن معجزات الأنبياء: إنها سحر (أفسحر هذا) أيضاً كما كنتم تدعون؟ (أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ) النار، وتحسون بلهبها؛ الذى يجعلها حقيقة واقعة"[1]، فقد يجعل العارف بالشيء نفسه جاهلاً به.

ومنه الفخر – كقول الشاعر:

أيُّنا تعرف المواقف منه وثبات علي العدا وثباتا

وهو أسلوب من الأساليب المستخدمة من قبل المتكلم ليعبر بها عن أمر كان من الواجب أن يكون له أهمية ولم يجد من الناس اهتماما به؛ فيجذبهم إليه دون تصريح منه، أو كان مبالغة فى مدح، أو ذم، ومرونة هذا الأسلوب مع خفائه يدعو المستمع إلي تبين حال المتكلم والسعى وراء مقاصده من خطابه وتعبيره؛ يقول البوصيرى فى مقدمة البردة:

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجتَ دمعا جري من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرقُ فى الظلماء من إضَم

[1] أوضح التفاسير، محمد عبد اللطيف بن الخطيب:ص٦٤٥.

جعل الشاعر من نفسه شخصا اخر فقال له :ما بال دمعک قد أصبح غزيرا حتي مال إلي حمرة الدم؟ ألأجل تذكّرک الأحباب القاطنين بذى سلم؟، أم إن هذا البكاء قد هيجه هبوب الرياح من جهة مساكنهم فى موضع كاظمة، ولمع البرق من جهتهم فى إضم، فتحركت لأجل ذلک أشجانک وأحزانک!

وهو يريد تأكيد بكائه المختلط بالدم، بطرح تشكيكه فى الأسباب الداعية إلي ذلک، أهى التذكر، أم الريح التى هبت من أرض محبوبه، أم البرق الذى أومض من جهتها، وهو عارف بأن السبب هو التذكر؛ ولذلک كان تجاهل العارف هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم.

ويري ابن جني أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه فى الظاهر عنه لكن غرضه فى الاستفهام أشياء، ومنها:

أن يري المسئول إنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، وأن يتعرف حال المسئول، هل هو عارف بما السائل عارف به، وأن يري الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد، لما له فى ذلک من الغرض، وأن يعد ذلک لما بعده مما يتوقعه، حتي إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقاً، فأوضح بذلک عذراً.[1]

[1] الخصائص، لابن جنى: ٢/ ٢٦٤، وانظر/خصائص النظم فى(خصائص العربية)، د.حسن بن عبد الرازق الجناجىُ، ص١٣٦.

الإرصاد

والإرصاد (لغة): الإعداد والترقب والتهيئة، يقال لغة: أرصد الشيء للشيء إذا أعده له، ومنه: أرصدت الجيش للقتال، والفرس للطراد، والإرصاد: نصب الرقيب في الطريق. قال تعالي: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (التوبة:١٠٧)

واصطلاحا: أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل علي العجز إذا عرف الروى.

وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره علي قافية قد أرصدها له؛ أى: أعدها فى نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته، وذلك من محمود الصنعة، فإن خير الكلام ما دل بعضه علي بعض، ويسمي هذا الفن بالإرصاد أو التسهيم، ويقصد به ما يكون فى الثوب من خطوط وألوان يتوقع منها الرائى تواصل الألوان والخطوط؛ فيقال: برد مسهم: فيه خطوط مستوية، وقيل: هو مأخوذ من وضع صورة السهم، للإشارة به إلي المكان المقصود، أو المعني المقصود، ومعلوم أن إعداد ما يلزم فى أول الكلام لمعرفة ما سيأتى فى آخره هو بمثابة وضع صورة السهم التى يشار بها إلي المقصود.

وورد منه فى القرآن الكريم مواضع يمكن لقارئه أن يكمل ختام الآية من خلال معرفة بدايتها؛ ففى قوله تعالي: **(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً**

فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (يونس:١٩) فإذا وقف السامع علي قوله تعالي: (لقضى بينهم فيما فيه) عرف أن بعده (يختلفون) لما تقدم من الدلالة عليه.

قال الله تعالي: **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف: ٣٤)**؛ أي: أن لكل أمة موعد لأجلها، فإذا جاء لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عليه.

والشاهد فى هذه الآية فى قوله: (يستأخرون) ومن خلالها نتوقع تلقائيا ورود مقابلها وهو (يستقدمون).

ومن ذلک أيضا قوله تعالي: **(فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**(العنكبوت:٤٠)

علي نحو منه جاء قوله تعالي: **(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)** (العنكبوت:٤١) فإذا وقع السامع علي قوله تعالي: (وإن أوهن البيوت) يعلم أن بعده بيت العنكبوت، كما أن هناک أمرا آخر بين الآيتين السابقتين فقد ختمت الآية (٤٠) من العنكبوت، بـ(يظلمون)، وربما يتوقع السامع ختام الآية (٤١) بقوله: (يعلمون).

وقال الله تعالي: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۞ فَاصْبِرْ عَلَي مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ**

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) (ق:٣٩-٣٨) فى هذه الآيۀ يخاطب الله عز وجل النبى (صلي الله عليه وسلم) قائلا له سبح بحمد ربک؛ أي: صل شاكرا، وذكر موعدا (قبل طلوع الشمس)؛ أي: صلاۀ الصبح (وقبل الغروب)؛ أي: صلاۀ الظهر والعصر، ومعرفۀ روى الآيۀ السابقۀ يساعد المتلقى فى توقع نهايۀ الآيۀ هنا، فحرف الروى الباء، وختمت به هذه الآيۀ والسابقۀ.

فالشاهد فى هذه الآيۀ لفظ الطلوع يستدعي مضاده الغروب وان لم يكن اللفظان من مادۀ واحدۀ .

ورد فى قوله تعالي:**(ذَلِکَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ)** (سبأ:١٧)

فمقدمۀ الآيۀ تعين المتلقى علي توقع الكلمۀ الأخيرۀ منها،فإذا سمع (ذَلِکَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى) أكمل مشاركا (إِلَّا الْكَفُورَ) وميزۀ هذا الفن كشف اللثام عن ذكاء المتلقى وتوقعه وتفاعله مع النص، من خلال معطيات ومقدمات وبذلک تشير أيضا إلي ذهن حاضر يفهم القضيۀ ويستطيع توقع نهايتها، وتميز الرسالۀ أو النص بالجمال لأن الكلام يأخذ بعضه برقاب بعض فى انسيابيۀ وسهولۀ ويسر، يفهمه السامع ولا يجد صعوبۀ فى المشاركۀ فى توقعه، وهذا التوقع ميزۀ فى هذا الموضع خاصۀ دون غيره من المواضع لوجود سبل الدعم والتكوين والعلاقۀ بين صدر الكلام وعجزه.

وفى الشعر قول زهير بن أبى سلمي:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعيش ثمانينَ حولا لا أبا لک يسأمِ

(سئمت) فى أول البيت وسياق البيت يساعد المتلقى علي معرفة القافية وتوقعها (يسأم).

وقول الآخر:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلي ما تستطيع

فكلمة "تستطيع" يأتى بها المتلقى قبل أن ينطق بها المتكلم؛ لأن صدر الكلام يمهد لها.

وقول البحترى:

أبكيكما دمعا ولوأنى علي قدر الجوي أبكى بكيتكما دما

والتوقع يأتى من ذكر بكاء الدمع فى صدر البيت، فإذا وصل إلي (بكيتكما) قال السامع "دما".

وقوله أيضا:

أحَلَّتْ دَمِى مِنْ غَيْر جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ بِلاَ سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلاَمِى

فَلَيْسَ الَّذِى حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ لَيْسَ الَّذِى حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ

فعند سماع "حللته" تتوقع ختام البيت "بمحلل"، وعند الوصول إلي "حرمته" تتوقع خاتمتها "بحرام"؛ ولذلک فلا يصعب علي السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى أن عجزه هو ما ذكره الشاعر.

ويمكننا أن نفهم علاقة هذا الأسلوب بطبيعة العرب اليقظة فى فهم الكلام وعلاقاته بعضه ببعض؛ فقد ورد أن أعرابيا سمع قول الله تعالي: (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة:٢٠٩)، فأخطأ القارئ فى ختام الآية؛ فقال: (فاعلموا أن الله غفور رحيم) فأنكر عليه الأعرابى ذلك، ولم يكن هذا الأعراب مسلما بل كان متيقظا للعلاقات بين صدر الآية وعجزها، ورأي أن الزلل لا يستوجب الغفران والرحمة بل يستوجب العزة والحكمة؛ لأن العزيز هو الغالب، والحكيم الذى يضع الشيء فى محله إن شاء عذب وإن شاء عفا.

مراعاة النظير

مراعاة النظير وتسمي التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة.

أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا علي جهة التضاد؛ كقوله تعالي: **(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)** (الرحمن:٥-٦) فناسب بين الشمس والقمر وهما كواكب وبين النجم والشجر وهما نبات؛ لأن المراد بالنجم هنا النبات الذى لا ساق له، والشاعر يقول:

أراعى النجم فى سيرى إليكم ويرعاه من البيدا جوادى

والنجم الأول الكوكب والهاء تعود علي المعني الثانى للنجم وهو النبات علي طريقة فن الاستخدام وهو من فنون البديع.

وفى الآية الكريمة كانت المناسبة اللفظية بين الشمس والقمر والنجم والمناسبة معنوية بين النجم والشجر وهذا من مظاهر الترابط بين الآيتين وقد عد الآية البلاغيون من إيهام التناسب.

وهذا الفن كثير فى القرآن الكريم والفنون الأدبية؛ ومنه قوله تعالي: **(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ)** (طه:١١٨-١١٩) فناسب بين الجوع وهو خلو البطن (الباطن) من الطعام، مع العرى وهو خلو الجسم (الظاهر) من الكساء، كما ناسب الجمع بين الظمأ وهو ارتفاع الحرارة الداخلية (وحاجته إلي الماء) مع الضحي وفيه ارتفاع الحرارة الخارجية وحاجته إلي (الظل).

ومن مراعاة النظير؛ قوله تعالي: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)** (البقرة:١٦)، فلما ذكر الشراء ذكر ما يناسبها من التجارة والربح.

وقول أسيد بن عنقاء الفزارى:

كأن الثريا علقت فى جبينه وفى خده الشعري وفى وجهه البدر

والثريا: مجموعة من الكواكب، والشعري: كوكب؛قال تعالي: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) (النجم:٤٩)، والتناسب هنا فى جمع (الثريا) و(الشعري) و(القمر) وهى كواكب، كما جمع بين (الجبين) و(الخد) و(الوجه).

وقول الآخر فى فرس:

من جلنار ناضر خده وأذنه من ورق الآس

والجلنار: زهر الرمان، الآس: شجر دائم الخضرة، بيضىّ الورق، أبيض الزَّهر أو ورديُّه، يُزرع للتزيين ولرائحته العطريّة، وثماره لُبِّيَّة سوداء تؤكل غضَّة وتجفّف فتكون من التَّوابل، فناسب بين أمرين متناسبين الجلنّار والآس وهما نبتَتان، والخدّ والأذن وهما عُضوان.

وقول البحترى فى صفة الإبل بالنحول والضعف:

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

شبه الإبل بالقسى وأراد أن يكرر التشبيه، فقصد إلي المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم ذكر القسى، وفى انتقاله بين القوس والسهم والوتر لأن

بينها مناسبة؛ فالقوس أغلظ من السهم المبري، والسهم المذكور أغلظ من الوتر، والوتر أرقها جميعا.

وقول أحد الشعراء فى آل النبى صلي الله عليه وسلم:

أنتم بنو طه ونون والضحي وبنو تبارک فى الكتاب المحكم

وبنو الأباطح والمشاعر والصفا والركن والبيت العتيق وزمزم؛ فجاء بالمناسبة بين أسماء السور فى البيت الأول وفى الثانى بحسن المناسبة بين المقدسات وأماكن العبادة فى الحرم المكى.

وقول ابن رشيق:

أصح وأقوي ما سمعناه فى الندي من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

فناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية ثم بين السيل والحيا والبحر وكف تميم وهذا للمبالغة فى كرم الأمير.

وقول بعضهم للمهلبى الوزير: "**أنت أيها الوزير إسماعيلى الوعد شعيبى التوفيق يوسفى العفو محمدى الخلق**"؛ فناسب بين ذكر الأنبياء وبين ذكر الصفات الحميدة.

ومن قول أبى تمام:

إقدامُ عَمْرٍو فى سَماحةِ حَاتِمٍ فى حِلمِ أحنَفَ فى ذَكاءِ إِيَاسِ

فناسب بين مشاهير العرب وبين صفاتهم التى اشتهروا بها.

وكان قد امتدح أبو تمام أحمدَ بن الخليفة المعتصم فى قصيدة مطلعها:

ما فى وقوفک ساعةً من باس تقضى ذِمامَ الأربُعِ الأدْراس

فقال أحد الجالسين تشبه الأمير بأجلاف العرب، فأطرق مليا ثم قال:

لا تنكروا ضربى له مَنْ دونه مثلاً شرودًا فى الندي والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً مـن المِشكـاة والنبراس

ولقيمة هذا الفن أدرجه الفخر الرازى فى باب النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع حسب نظرية الجرجانى، وهو كثير فى النظم القرآنى ويدخل تحت الجمع بين المتناسبات؛ ففى قوله تعالي مثلا: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (سورة التين:١-٣) يسأل سائل ما وجه المناسبة ومراعاة النظير بين التين والزيتون وهما شجرتان وبين الطور وهو جبل بمصر والبلد الأمين وهى مكة المكرمة، وجمال التناسب يأتى من قراءة ما وراء هذه المفردات، وبعد القراءة نلمس عمقا وتقاربا وحسن مراعاة فى اختيار هذه المفردات وبخاصة إذا عرفنا أن المراد بالتين والزيتون فلسطين حيث مود المسيح عليه السلام، وبطور سيناء هذا الجبل الذى كلم الله -تعالي- موسي -عليه السلام- عنده، والبلد الأمين مكة بلد الرسول الخاتم، ولعل السر وراء هذا التناسب راجع إلي مهابط الوحى؛ ففلسطين مهد رسالة عيسي، والطور مهد رسالة موسي، ومكة مهد رسالة محمد صلي الله عليه وسلم؛ فقد أفاد فهم مراعاة النظير فى التعمق وفهم كثير من الأمور المتناسبة وبيَّن وجوه الحسن فيها.

تشابه الأطراف

يعد هذ الفن تكملة لمراعاة النظير، والتناسب بين أجزاء الكلام فى صدره وعجزه؛ وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعني.

وكل فواصل القرآن جاءت علي هذه الدقة من التناسب وتشابه الأطراف؛ فالعلاقة بين مضمون الآية وختامها فى الفاصلة واضح وإنما سميت الفاصلة فاصلة لبيانها ووضوحها.

ومن أمثلته:

قوله تعالي: **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)** (الأنعام:١٠٣) لا تدركه الأبصار فهو لطيف، أي: باعتبار المتبادر منه وهو الدقة لأخذه من لطف إذا دق ورق، ومعلوم أن الشيء كلما لطف ودق كان أخفي فلا يدرك بالبصر، ألا تري للهواء فإنه لما لطف جدّا امتنع إدراكه بالبصر عادة وإن كان ذلك المعني محالا في حقه تعالي، إذ اللطيف في حقه بمعني الرفيق بعباده الرؤوف بهم.

وهو يدرك الأبصار فهو خبير بها وبأحوالها مطلع علي سرها وعلانيتها، ومناسبة الخبير لإدراكه الأبصار فظاهرة؛ لأن الخبير من له علم بالخفيات، والظواهر منها الأبصار فهو يدركها.

وقوله تعالي: **(لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ)** (الحج:٦٤)

ذكر فى بداية الآية أن كل ما فى السماء والأرض لله تعالي لاشريک له فى ملكه، وجاء ختام الآية باسمين من أسمائه الحسني هما الغني والحمد (الغنى الحميد) وهذان اللفظان يناسبان مضمون الآية ومعناها، فإنه لما كان له الملک كله احتاج العباد إليه فهو غنى عنهم وهم محتاجون إليه، فلما أعطاهم حمدوه علي نعمه أو حُق لهم أن يحمدوه؛ فهو محمود من قبلهم وحميد.

ومن خفى هذا الضرب قوله تعالي: **(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُکَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** (المائدة:١١٨)، فإن قوله: (وإن تغفر لهم) يوهم أن الفاضلة الغفور الرحيم، ومجيء الفاصلة علي خلاف مايوهم فعل الشرط؛ لأن مغفرته لقدرة وحكمة وتقدير للأمور، والمناسبة تقتضى من الأسماء الحسني (العزيز الحكيم)؛ لأن العزيز الغالب، والحكيم الذى يضع الشيء فى محله، والمغفرة والرحمة تابعان للعزة والحكمة ولا يصح العكس.

ومن فنون تشابه الأطراف فن أورده ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير وقال: سماه الأجدابى التسبيغ، وفسره بأن قال: هو أن يعيد لفظ القافية فى أول البيت الذى يليها، ومنه قول الشاعر:

خليلى إن لم تعذرانى فى الهوي ولم تحملا عنى اذهبا ودعانى

دعانى إليه الحب فالحب آنفا دعانى قلبى إذ دعاه جنانى

جنانى فى سكر فلا رأي عنده بكأس بها ساقى الغرام سقانى

ومنه فى القرآن الكريم قوله تعالي: **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ)** (النور:٣٥)

وتشابه الأطراف حاصل فى هذه المقاطع (كمشكاة فيهامصباح/ المصباح فى زجاجة/ الزجاجة كأنها كوكب).

وكقوله تعالي فى سورة القدر: **(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)**(القدر:٢-٣) فختم الآية بليلة القدر ثم بدأ بها، وكررها ظاهرة ثلاث مرات، ومرة ضميرا متصلا ومرة أخري ضميرا منفصلا؛ لعظمتها وعلو قدرها علي ما سواها من الليالى ففيها نزل خير كتاب وأحسن بيان.

ومنه قول قيس لبني (قيس بن ذريح):

إلي الله أشكو فَقْدَ لُبني كما شكا إلي الله فقدَ الوالدَيْنِ يتيمُ

يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُه نَحيلٌ وعهدُ الوالدَيْن قديمُ

فتشابهت أطراف البيتين فى ختام الأول ومبتدأ الثانى، ولعل الشاعر أراد أن يبرز صفة اليتم الذى حل به جراء فقد لبني ورمي إلي إشراك السامع فى بلائه.

وأنشد فيه قول ليلي الأخيلية تمدح الحجاج:

إِذَا نَزَلَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أَقْصَي دَائِهَا فَشَفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِى بها غُلاَمٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا

سَقَاهَا فَرَوَّاهَا بِشِرْبٍ سِجَالُهُ دِمَاءُ رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا

أى :إذا نزل بأرض فيها خارجون يُفْسدون تتبَّعَهُم حتَّي قَتَل الهاربين والمتخفين ورؤُوسَ الفتنة منهم، وأجهز عليهم.

وقوله: سِجَالُه :السِّجال يقال للدَّلْوُ العظيمة، والضَّرْعُ العظيمة، ومرادُها هنا الضروع، تَشبيها لأوعية دماء الخارجين المفسدين بالضروع الممتلئة والصَّرَي ما طال مُكْثُه ففسد، وهى تريد أنّ جنود الحجّاج يستخرجون برماحهم وسيوفهم الدّماء الفاسدة من هؤلاء الأشرار.

وهذه الفنون وبخاصة التسبيغ أو التعانق أو تشابه الأطراف يصح أن تكون فى الفنون اللفظية لجرسها الصوتى بتكرار اللفظ، وما وضعت هنا إلا لكونها فن من فنون تشابه الأطراف الذى يعتمد علي إبراز المعني.

ومن فنون تشابه الأطراف ما يعتمد علي ركيزة الجملة واطلق عليه بعض البلاغيين اقتباس الركائز ؛ وهى كقوله تعالي: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين)** (المؤمنون ١٢ – ١٤)، وألفاظ (نطفة- علقة- مضغة- عظام) هذه الكلمات ركائز الجمل تكررت فى الجمل التالية، وهذا التكرار يناسب مقام التحدى والتعجيز؛ فكل آية من هذه الآيات معجزة فى حد ذاتها.

و"(خَلَقْنَا) هنا للإشارة إلي أن ذلك التصيير أو التحويل إنما هو بخلق اللَّه تعالي لَا بالسببية التى تحول الجنين من نطفة إلي علقة ثم إلي مضغة، فإن اللَّه تعالي هو الخلاق العليم الذى ينشئ الشىء، فلا ينشأ شىء بغير إرادته، إنما إرادة اللَّه تعالي وقدرته هى الفاعلة"[1].

وتكرر فعل الخلق مرات وفعل الجعل مرة، لأن الخلق إخراج من عدم، وكل مرحلة من هذه المراحل تعد خلقا جديدا تختلف عن سابقتها، وفى كل مرة إيجاد من عدم، أما ذكر الجعل فجاء فى سياق الحديث عن الصيرورة ووصول النطفة لبدء رحلة الخلق، فهو خلق الإنسان أولا وهو آدم ثم جعل نسله من ماء مهين.

وهذا العرض جاء فى موضع آخر بأسلوب غير هذا الأسلوب؛ قال تعالي: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَي أَجَلٍ مُسَمًّي ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّي وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَي أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)(الحج:٥)، فذكر شيئا خفيا وشيئا ظاهرا للاستدلال بتحقق الظاهر دليلا وبرهانا علي صدق الخفى، والجميع لسهولة البعث؛ لأن الإعادة أيسر من البدء.

[1] زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة:١٠/ ٥٠٥٣.

المشاكلة

المشاكلة فى اللغة: المماثلة.

واصطلاحا: هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تقديرا أو تحقيقا.

ومن التقدير؛ قوله تعالي: **(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)** (البقرة:١٣٨)

والمعني: تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصاري كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: (قولوا آمنا بالله) وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا وطهرنا به تطهيرا لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم يصبغ صبغتكم، وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ؛لأن قرينة الحال التى هى سبب النزول من غمس النصاري أولادهم فى الماء الأصفر دلت علي ذلك.

والمشاكلة تحقيقا:

كقول أحدهم وقد دعى إلي مأدبة طعام، ويريدون منه اقتراح ما يشتهى؛ فقال هذا البيت:

قالوا اقترح شيئا نجد لک طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

كأنه يقول الأولي أن تسألوا عما هو أنفع لى وهو الفقر الظاهر لا الفقر الباطن، فأتى بلفظ (اطبخوا) بدلا من خيطوا لى ليشاكل مقالتهم ويصرفهم إلي ما ينفعه، وهذا فى كلامنا كثير.

ومنه فى القرآن أمثلة كثيرة؛ نحو:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (آل عمران:٥٤)

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) (يونس:٢١)

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (النمل:٥٠)

أى جازاهم الله علي مكرهم بمكر أشد منه وأقسي، وقسوة الجزاء تكون إذا كانت العقوبة مساوية للذنب ومن جنسه، "ويسميها البعض مشاكلة تقديرية، ومعني: والله خير الماكرين؛ أى: أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إياهم.

وقال تعالي: **(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)** (النساء:١٤٢)، فما أقسي أن تقابل من خدعك بخداعه وادعاء جهلك بفعله، وأنت محيط به مطلع علي كل ما يصنع، موهما إياه بعدم العلم والمعرفة بأحواله، وكلما تمادي فى خداعك تماديت فى إظهار جهلك بما يصنع، لعل وقع هذا أشد إيلاما من كشفه وهذا فى علاقات الناس، كيف بالله وقد مد لهم ليملى لهم وهو مطلع علي تدبيرهم وما يخفون وما يعلنون.

عليه قوله تعالي: **(تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)**(المائدة:١١٦)، قال صاحب الكشاف: "والمعني: تعلم معلومي ولا أعلم معلومک ، ولكنه سلک بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه، فقيل: (فِى نَفْسِكَ) لقوله: (فى نفسى)، وقوله: (إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) تقرير للجملتين معاً؛ لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد"[1].

أى: تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما عندک من تقدير، وإن كانت اللفظة مشاكلة فالمعني مختلف؛ لأن الله تعالي ليس كمثله شىء، وإن اتفقت بعض صفات البشر مع صفاته ولكن ليس أكثر من اتفاق ثمار الدنيا فى الأسماء مع ثمار الجنة، فالشبه محال بعيد لا مقارنة فيه.

وقوله تعالي: **(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)** (البقرة:١٩٤)

فذكر الدفاع عن النفس والعقوبة بالاعتداء مشاكلة فى سياق الاعتداء، والسياق قيد الاعتداء من كل الوجوه حتي لا يفهم السامع اعتداء باعتداء فيجور، فقدم بذكر القصاص وثنى بذكر كلمة مثل للعدالة وأمر بالتقوي وجزاء المتقين.

---

[1] الكشاف:٦٩٤/١.

ومنه قوله: **(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَي اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)** (الشوري:٤٠) وجزاء سيئة عقوبة، ولكن لما كان جزاء الشيء بمثله أشد إيلاما ذكره بلفظه، وفى الآية إنصاف وعزة ورحمة.

وقال تعالي عن امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام: **(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَي بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)** (يوسف:٢٤)

فذكر الهم من يوسف عليه السلام فى سياق الهم منها مشاكلة، فهى التى دبرت وخططت وغلقت الأبواب وقالت تهيأت لك؛ وقيل: "همت بإمساكه وضمه المراد بهمه عليه السلام: ميل الطبع البشرى، ومنازعة الشهوة الفطرية؛ لا القصد الاختيارى، وهذا الهم مما يصح أن يكتب له به حسنة، لا أن تحسب عليه سيئة. وقد جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة: (إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة)"[1] ، وفى الهم كلام كثير لكن ما يتفق عليه الجميع أن هم يوسف عليه السلام ليس كهمها هى؛ لذا حسن عد همه من قبيل المشاكلة.

ومنه قول أبى تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

[1] أوضح التفاسير:ص ٢٨٣.

كأنه يقول أن اختيار الجار أولي من اختيار المنزل، ومشقة بناء المنزل تحتاجإلي جهد جهيد ولكن لا تساوى شيئا أمام مشقة الحصول علي جارٍ حسنٍ.

وشهد رجل عند شريح؛ فقال: (إنک لسبط الشهادة)؛ فقال الرجل: (إنها لم تجعد عنى).

وسبط الشهادة سهل يسير فى عرضها، وتجعد عنى؛ أى لم تصعب على، ولما أتى القاضى بلفظ سبط المستعمل فى وصف الشعر، جاء الشاهد بلفظ التجعيد مشاكلة له.

والذى سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها.

ومنه ما روي عَنْ عَائِشَةَ رضى الله عنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَىَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِى امْرَأَةٌ، فَقَال: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ، تُصَلِّى. قَالَ: **(عَلَيْكُمْ مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّي تَمَلُّوا)** وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ "[1].

فالملل هنا جاء بلفظه من قبيل المشاكلة وفهم المعني القريب يفى بالمقصود، وقال العلماء: "الواجب هو إمرار هذا الحديث كما جاء، مع الإيمان بالصفة، وأنها حق علي الوجه الذى يليق بالله، من غير مشابهة لخلقه ولا تكييف، كالمكر والخداع والكيد الواردة فى كتاب الله عز

[1] رواه البخارى ومسلم.

وجل، وكلها صفات حق تليق بالله سبحانه وتعالي علي حد قوله تعالي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

ومن العلماء من يقول: إن قوله: (لا يمل حتي تملوا) يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل فإن الله يجازيک عليه، فاعمل ما بدا لک فإن الله لا يمل من ثوابک حتي تمل من العمل، وعلي هذا فيكون المراد بالملل لازم الملل.

ومنهم من قال: إن هذا الحديث لا يدل علي صفة الملل لله إطلاقا؛ لأن قول القائل: لا أقوم حتي تقوم، لا يستلزم قيام الثانى وهذا أيضا (لا يمل حتي تملوا) لا يستلزم ثبوت الملل لله عز وجل.

وعلي كل حال يجب علينا أن نعتقد أن الله تعالي منزه عن كل صفة نقص من الملل وغيره، وإذا ثبت أن هذا الحديث دليل علي الملل؛ فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق"[1]

ومنه قول أحدهم فى قاض شهد عنده برؤية هلال الفطر فلم يقبل شهادته

أتري القاضى أعمي أم تراه يتعامي

سرق العيد كأن العيد أموال اليتامي

وعلي ما فيها من السخرية تفيض بلاغة وحسنا وتعبيرا عن مظهر من مظاهر السوء.

---

[1] مجموع فتاوي ابن عثيمين: ١٧٤/١.

حسن التعليل

وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى؛ أى: أن ينكر الأديب صراحة، أو ضمناً، علة الشىء المعروفة، ويأتى بعلة أخري أدبية طريفة، لها اعتبار لطيف، ومشتملة علي دقة النظر، بحيث تناسب الغرض الذى يرمي إليه.

فانتظار التعليل الحقيقى غير مقصود هنا، وقد يكون فيه جفاء كأن يكون تحليلا علميا يحتاج إلي العلوم الطبيعية لبيان معناه، ولكن الشاعر هنا لم يأت لإثبات نظرية أو حقيقة علمية، ولكن لتعليل وجود هذه الظاهرة بأسلوب جمالى رشيق فيه نظر وطرب للسامع؛ لطرافة تعليله.

قال أحد الشعراء يهنئ فيها بمولود:

لم يستهلَّ بُكاً ولكن مُنْكِراً أن لم تُعَدُّ له الدُّروعُ لَفائِفاَ

فهذا المولود يكون بكاؤه وصراخه عند الولادة لعلة طبيعية، إلا أن الشاعر وظفها ساردا علة أخري وكأنه ينكر العلة الطبيعية؛ وعلته أن هذا المولود من بيت عز ومجد ورفعة؛ فبكاؤه الناتج هذا؛ لأنه لم تعدُّ له الدروع وأدوات الحرب والقتال، وفى هذا كناية عن فروسية أهله؛ فإذا كان رضيعهم هكذا فكيف بكبيرهم؛ وهو كقول عمرو بن كلثوم:

إذا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطاما تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا

ومن ذلك قول أبى الطيب المتنبى فى المبالغة فى الوصف بالجود:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

ينكر الشاعر العلة الطبيعية لقتل الأعداء؛ لأن قتل الملوك أعداءهم فى العادة لإرادة هلاكهم وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم ، ولكن الشاعر ادعي أن طبيعة الكرم غلبت علي ممدوحه، وكذلك محبته أن يصدق رجاء الراجين، لما علم أنه لما غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة علي وجه تخييلى أى تناهى فى الشجاعة حتي ظهر ذلک للحيوانات؛ فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق، بل بالقسط والعدل واستجابة لرجاء من يرجوه.

ومثله قول الشاعر مبالغة فى المدح:

أما ذكاء فلم تصفر إذ جنحت إلا لفرقة ذاک المنظر الحسن

وذكاء: الشمس، جنحت: وقت الغروب والمغيب، وهو يعلل لاصفرار الشمس عند المغيب بسبب غير الطبيعى؛ وهو أن الشمس لم تصفر عند الجنوح إلي المغيب للسبب الطبيعى ولكنها اصفرت مخافة أن تفارق وجه الممدوح، كما يفارق المحب حبيبه فيحزن لذلک ويصيبه الاصفرار والشحوب.

ومثله قول الشاعر:

ما قصَّر الغيث عن مصرٍ وتربتها طبعاً ولكن تعدّاكم من الخجل

ولا جري النِّيل إلا وهو معترف بسبقكم فلذا يجرى علي مهل

يتحدث الشاعر عن قلة الغيث بمصر فى فترات القحط، ويعزو هذا إلي أسباب غير الطبيعية أهمها فى رأيه خجل الغيث من جود الممدوح، وهو كذلك إذا جري يجرى علي استحياء منه.

فلهذا ينكر الشاعر هنا الأسباب الطبيعية لقلة الغيث بمصر، ويجعل السبب الرئيس، أن الغيث يخجل أن ينزل بأرض يعمها فضل الممدوح وجوده؛ لأنه لا يعجز عن مسابقته فى الكرم والعطاء.

ومثله:

ما زلزلت مصر من يكد يراد بها وإنما رقصت من عدله طربا

وكقول أبى الطيب المتنبى:

لم يحک نائلک السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء

فإن نزول المطر لا يظهر له فى العادة علة، ولكن الشاعر جعل علة نزول المطر غيرته من جود الممدوح؛ ولذا حزن ومرض من عدم قدرته علي مجاراة جوده؛ فأصيب بالحمي؛ فنزل ماؤه الناتج عن مرضه مطرا للعباد.

وقد يأتى فى الرثاء من خلال توظيف مصادر الطبيعة؛ كقول المعرى:

وما كُلفة البدر المنير قديمةٌ ولكنها فى وجهه أثر اللطم

يقصد: أن الحزن علي (المرثى) شمل كل مظاهر الكون؛ ومنها البدر، فيدعي أن ما يظهر علي وجهه من كدرة (كلفة البدر) ليست ناشئة عن سبب طبيعى، وإنما هى حادثة من أثر اللطم علي فراق المرثى، واللطم

لغة جسدية تبين للرائى شدة حزن اللاطم علي هذا الميت، وهى من عادات الجاهلية وقد نبذها الإسلام.

وكقول أبى تمام:

لا تنكرى عطل الكريم من الغني فالسيل حرب للمكان العالى

عطل الكريم من الغني: أى: خلو الكريم من الغني، يقال: عطل يعطل عطلا، إذا خلا .

علل عدم إصابة الغنى الكريم بالقياس علي عدم إصابة السيل المكان العالى كالطود العظيم من جهة أن الكريم لاتصافه بعلو القدر كالمكان العالى والغنى لحاجة الخلق إليه كالسيل.

أى: أنه علل فقر الكريم بعلة ادعاها زخرفيا فى الكلام دون مستند من الحقيقة، هو أن ذا المكانة الرفيعة لا يكون غنيا، قياسا علي أن السيل لا يصل إلي المكان العالى، وعبر عن ذلک بأنه حرب له.

وكقول الشاعر فى إظهار الحب والوجد:

لا تنكروا خفقان قلبى والحبيب لديّ حاضر

ما القلب إلا داره دقت له فيها البشائر

فينكر خفقان القلب لعلة طبيعية، وما يتصل بها من تغيرات فى الجسم لإحداث الخفقان؛ ولكن ذكر علة أخري وهى فرحة القلب بهذا الحبيب فكأنها دار دقت فيها الطبول والمعازف.

قول الشاعر ابْنِ نُبَاتَةَ فى صفة فرس أدهم مُحَجَّل القوائم ذى غُرَة:

وأَدْهَمَ يَسْتَمِدُّ اللَّيْلُ مِنْهُ وتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثُّرَيَّا

سَرَي خَلْفَ الصَّباحِ يَطِيرُ مَشْياً ويَطْوِى خَلْفَهُ الأَفْلاَكَ طَيّاً

فَلَمَّا خَافَ وَشْكَ الفَوْتِ مِنْهُ تَشَبَّثَ بِالْقَوَائِمِ والْمُحَيَّا

الأدهم:الأسود، والثريا: كواكب، والسري: المشي ليلاً، والقوائم: جمع قائمة، وهى رجل الفرس أو يده، والمحيا: الوجه.

يعلل الشاعر للبياض الموجود فى غرة الفرس وقوائمه إلي تشبث الصباح بهما فترك أثر بياض الصبح عليهما منكرا العلة الطبيعية فى خلقه؛ وذلك أن فرسه الأسود لشده سواده كأن الليل يستمد ظلمته منه، وله غرة بين عينيه كأنها الثريا تطلع بين ظلام الليل، وقد مشي ليلاً بسرعة كانت لها الأفلاك تطوي من خلفه طياً، فلما خاف الصباح من أن يسبقه الفرس ويفوته تعلق بقوائمه ومحياه متشبثاً بهما.

وكقول أبى طالب المأمونى:

مغرم بالثناء صب بكسب المجد يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإعفاء إلا رجاء أن يري طيف مستميح رواحا

هذا الرجل لكرمه لا ينام كما ينام الناس للراحة بل لجوده ينام ليلقاهم بمنامه، ويشير إلي أن العفاة إنما يحضرون له فى صدر النهار علي عادة الملوك فإذا كان الرواح قلوا، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم وقريب منه قول الشاعر عن محبوبته:

وإنى لأستغفى وما بى نعسة لعل خيالا منک يلقي خياليا

وهنا جعل من أسباب النوم لقاءالمغرم المتيم بحبيبه أن يراه فى المنام فيريد النوم.

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

يعلل حمرة العين بصورة أدبية مقبولة وهى قتلها للعاشقين.

ويقول الشاعرفى عتاب المحبوبة له:

أتتنى تؤنبنى بالبكا فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفى قولها حشمة أتبكى بعين ترانى بها

فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها

وذلک أن العادة فى دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ونحو ذلک من الأسباب الموجبة للاكتئاب، لكنه جعل السبب استحسان غير المحبوب علة للبكاء.

وقول الشاعرفى المدح:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

الشاعر هنا ينكر علة طبيعية وهى ما يحيط بالجوزاء من دائرة تشبه نطاق الخادم الذى يشده حول وسطه استعدادا للخدمة، وقد بالغ فى جعل

مظاهر الطبيعة كلها فى خدمة الممدوح حتي الجوزاء التى لو لم تكن نيتها الخدمة لما شدت حول وسطها النطاق.

ومنه يقول ابن هانئ الأندلسى:

قد طيّبَ الأفواهَ طِيبُ ثنائِهِ مِنَ أجلِ ذا تجدُ الثّغورَ عِذابا

لو شَقّ عن قلبى امتحانٌ ودَادهِ لوجدتَ من قلبى عليه حجابا

جعل العلة فى طيب الفم إنما سببها هو ذكر الممدوح، لا علة أخري منكرا غيرها من أسباب جمال الفم وطيبه.

ومن تعليلات الشعراء وحسنها؛ نذكر للمتنبى فى قصيدة الحُمَّي، وقد قالها بمصر حين أصابته:

ومطلعها:

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

ثم يقول إلي سبب علته:

يقولُ لِىَ الطبيبُ أكلْتَ شيئا وداؤُك فى شرابِكَ و الطعامِ

و ما فى طِبّهِ أنى جوادٌ أضرَّ بجِسمِهِ طولُ الجِمامِ

تعوّدَ أن يُغَبِّرَ فى السَّرايا ويدخلَ من قتامٍ فى قتامِ

فأُمْسِكَ: لا يُطالُ له فيرعي ولا هوَ فى العليقِ ولا اللجامِ

الجمام :الراحة .السرايا :جمع سرية، وهى القطعة من الجيش تسرى إلي العدو، والقتام: الغبار، وأراد بدخول القتام: حضور الحرب.

فأمسک: أى الجواد، ولا يطال له: أى لا يرخي طِوَلُه، وهو حبل طويل تشد به قائمة الدابة وترسل فى المرعي.

والمعني، يقول: إن الطبيب يظن أن سبب دائى الأكل والشرب؛ أكلت كذا وكذا مما يضر، وليس فى طبه أن الذى أضر بجسمى طول لبثى وقعودى عن الأسفار، كالفرس الجواد، يضر بجسمه طول قيامه فى المرابط، فيفتر وينى.

وقد تعود هذا الجواد _يعنى نفسه_ أن يثير الغبار فى الجيوش، ويخرج من حرب فيدخل فى غيرها.

فأمسک هذا الجواد لا يرخي له الطِّوَل فيرعي فيه ولا هو فى السفر فيعتلف من المخلاة _ التى تعلق علي رأسه_ وليس هو فى اللجام، وهذا مثل ضربه لنفسه، وأنه حليف الفراش، ممنوع عن الحركة، وجائز أن يكون هذا المثل قد ضربه لحالته مع كافور. [1]

وهذه العلة التى شبه فيه الشاعر نفسه بفرس حر قد أمُسک، وما أصابه من مرض ليس لعلة طبيعية ومرض معروف فى الطب بل هو أمر لا يفهمه الطب، وذكر حاله كحال الفرس فى التضييق عليه، والفرس يكره التضييق والحبس، وهذه أبيات قالها بعد جفوته مع كافور الإخشيدى. ويتخذ أبو العلاء المعرّىّ من الشمعة معادلا موضوعيا لذاته المتألمة؛

[1] شرح ديوان المتنبى للبرقوقى، ص ٢٢٥.

يقول:

وصفراءَ لونِ التِّبْرِ مثلى جليدَةٌ علي نُوَبِ الأيّامِ و العيشةِ الضَّنْكِ
تُريكَ ابتساماً دائماً و تجلُّداً وصبراً علي ما نابها و هىَ فى الهُلْكِ
ولو نطقَتْ يوماً لقالَتْ: أظنُّكم تخالون أنى مِنْ حذارِ الرَّدي أبكى
فلا تحسبوا دمعى لوَجْدٍ وجَدْتُهُ فقدْ تدمُع الأحداقُ من كثرةِ الضِّحْكِ

بدأ الشاعر بعكس التشبيه وقلبه بأن الشمعة تشبهه فى صبرها وجلدها علي صروف الدهر ومصائبه، ثم انتقل إلي ما يصيبها هى من احتراق وذكر أن ما ينزل من عملية الاحتراق كالبكاء، وقال إن هذا البكاء نشأ عن كثرة الضحك، لا عن خوف هلاكها، وحالها كحاله تنهشه مصائب الدهر وما يظهر من حزنه ودمعه يظنه الناس غير ما يعرف هو.

والعلة فى البيت الأخير حيث ينكر أن يكون سبب البكاء هو لصروف الدهر ومصائبه بل إن ما ينزل من دمع هو لكثرة الضحك، لأن الإنسان عندما يفرح أيضا تتساقط منه دمع الفرح، وهذه كلها محاولات منه لإخفاء جزعه، فالسياق يكشف عن نفس متألمة حزينة فكيف يكون الدمع لغير هذا الحزن المسيطر علي كلماته.

علل بعلل أدبية طريفة (شعرا أو نثرا) من تأليفك:

- دنوّ السحاب من الأرض.- كسوف الشمس.- طول الليل.– حدوث الزلالزل –أصوات الطيورفى الصباح مع الندي.

- احتراق دار غاب عنها أهلوها. - نزول المطر في يوم مات فيه عظيم.

اللف والنشر

اللف والنشر (لغة): اللفّ: يقال: لف الشيء اذا جمعه، ويطلق عليه بعض البلاغيين الطى، و(النشر) يقال:نشر الشيء اذا بسطه.

و(اصطلاحا): هو أن يذكر متعدد علي جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يرده إليه

وله ثلاثة أضرب:

(١) أن يكون النشر فيه على ترتيب اللف.

(٢) أن يكون النشر فيه على خلاف ترتيب اللف.

(٣) يأتى على جهة الإجمال من قبيل اللف والنشر.

فالأول: لأن النشر إما علي ترتيب اللف؛ كقوله تعالي: **(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَي عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)** (الإسراء:٢٩)

والغَل: البخل، والبسط: الإسراف فجمع الغل والبسط أولا ثم جاء بما يناسب كل منهما علي الترتيب، فناسب الغل اللوم؛ أى: لوم الناس وتقريعهم، وناسب البسط الحسر والعجز عن الإنفاق؛ لأنك إن أسرفت أنفقت مالك ولم تجد ما يعينك علي الحياة.

ولم يقل سبحانه: ولا تجعل يدك مغلولة إلي عنقك؛ فتقعد ملوما، ولا تبسطها كل البسط؛ فتقعد محسورا.

لأسباب منها: الإيجاز والبعد عن التكرار لكلمة (فتقعد) ولا داعى للتكرار، وكذلك جمع بين صفتين متناقضتين فأراد أن يجمع الجزاء ليكون أكثر وقع فى نفس السامع، وأنه لما أخر الجزاء جعل السامع يتشوق إلي معرفة عاقبة كل منهما، والجمع بينهما يدعو السامع إلي كد الذهن واليقظة لرد كل واحد إلي ما يلائمه.

كقوله تعالي: **(وَإِلَي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۞ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَي بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ۞ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)** (العنكبوت:٣٦-٤٠)

تفنن القرآن فى ذكر هلاك هذه الأمم، فذكر مدين قوم شعيب وتبعهم بذكر هلاكهم بالرجفة ثم ذكر إجمالا أقوام عاد وثمود وقارون وفرعون ووزيره هامان، وأعاد عليهم طريقة هلاكهم مفصلا علي الترتيب بالحاصب والصيحة والخسف والغرق.

فقوم عاد أرسل عليهم الحاصب، وقوم ثمود أهلكهم بالصيحة، وقارون خسف به الأرض، وفرعون وهامان أغرقهم.

ومنه قوله تعالي: **(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** (القصص:٧٣)

جمع (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أولا ثم ذكر ما يلائم الليل أولا(السكون) ثم ما يلائم النهار ثانيا (ابتغاء الفضل)، وانظ كيف كان للف والنشر دور فى الإيجاز والبلاغة واختيار الأسلوب الذى يصلح مع المقامين اللغوى والموقفى.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (لقمان:١٨)، وقوله: تعالي: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)؛أى: لا تعرض عنهم تكبراً، والصعر - بفتح العين - ميل الوجه، ذكر تصعير الخد والمشى مرحا، ثم أعاد عليهما مقت الله تعالي لصفتى الخيلاء والفخر.

ومن بديع هذا الباب قول امرئ القيس:

كأنَّ قُلُوب الطَّير رَطْبًا ويابسًا لدي وَكْرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

قاله امرؤ القيس، يصف وكر العقاب، وصفها بكثرة صيدها للطيور، تأخذ قلوبها لتغذى بها فراخها، واليابس منها، هو الباقى من الغذاء.

وشبه الرطب واليابس من قلوب الطير بالعناب والحشف البالى، الأول رطبا ويابسا هذا مشبه، العناب والحشف البالى هذا مشبه به، ويسمي تشبيه ملفوفا، شبه الرطب واليابس من قلوب الطير بالعناب والحشف

البالى، ذكر أولا المشبهين، ثم المشبه بهما علي الترتيب، وهذا وصف العقاب بكثرة اصطياد الطيور، وقوله: رطبا ويابسا: حالان من القلوب، لماذا قلنا: رطبا ويابسا مشبهين؟ لأن كلا منهما مقابل الآخر، لا يمكن أن يكون فى محل واحد رطبا ويابسا، لزم من ذلک التعدد، وإلا يمكن أن يقال: بأنه وصف لقلب واحد، لكن نقول: لا يمكن أن يجتمعا، لا يمكن أن يكون القلب رطبا ويابسا فى وقت واحد من كل وجه.

وجمع هذا البيت من محاسن الفنون ما لم يجمعه بيت؛ فقد ذكر المقابلة بين المعانى(الرطب واليابس) و(العناب والحشف)، وصورة التشبيه الملفوف، وذكر كأن فى أول البيت وهى التى تجمع خيوط البيت جميعا، وفن اللف والنشر المتداخل مع التشبيه فى براعة وسهولة تداخل هذه الأنواع التى يصطاده العقاب.

والشاهد: ذكر كلمتى الرطب واليابس ثم ذكر العناب والحشف، والتقدير: رطبا كالعناب، ويابسا كالحشف البالى.

وقول ابن حيوس:

فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

الفعل واللون والمذاق وأعاد عليها صفات تناسبها المقلة والوجن والريق.

ومثله قول شمس الدين بن العفيف:

رأي جسدى والدمعَ والقلب والحشا فأضني وأفني واستمال وتيما

الجسد والدمع والقلب والحشا ثم أعاد علي كل ما يصلح له أضني وأفني واستمال وتيّم.

وقول ابن الرومى:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات إذا دجون نجوم

فيها معالم للهدي ومصابح تجلو الدجي والأخريات رجوم

الآراء والوجوه والسيوف ثم نشر ما يلائم علي الترتيب فالآراء كالمعالم للهدي والوجوه كالمصابيح، والسيوف كالرجوم.

ومنه قول الشاعر:

أَلَسْتَ أنتَ الذى مِن وِرْدِ نِعمته ووِرْدِ راحته أجْنِى وأغتَرِفُ

الوِرد: الشىء الذى يورد والأصل فيه الماء، قال تعالي: (ولما ورد ماء مدين)، والراحة: اليد، وقد جمع هذا البيت مع جمال الألفاظ بين جناس التحريف والاستعارة واللف والنشر، ولما ذكر ورد النعمة وورد الراحة علي التفصيل، ثم ذكر ما للنعمة وهو أجْنِى وما للراحة وهو أغترف، وقد جاءت علي الترتيب فالأول للأول، والثانى للثانى.

ومَا أبدع قَول ابْن شرف القيروانى:

جاورْ عَليّاً ولاَ تَحْفلْ بِحادثةٍ إذَا ادرعيت فلاَ تَسألْ عنِ الأسَلِ

سلْ عنهُ وانْطقْ بهِ وانْظرْ إليهِ تَجدْ مِلء الْمَسَامِع والأفواَهِ والمُقلِ

(٢) أن يكون النشر فيه على خلاف ترتيب اللف.

كقوله تعالي: **(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا)**(الإسراء:١٢)

ذكر (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) ثم نشر غير مرتب اعتمادا علي تصرف السامع ورد مل واحد إلي ما يناسبه (لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) وابتغاؤ الفضل فى النهار ومعرفة الحساب بالليل.

وقوله تعالي: **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)**(آل عمران:١٠٦-١٠٧)

ذكر أولا (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ) وعندما فصل بدأ بالذين اسودت وجوههم وتلاه باللذين ابيضت وجوههم، ولهذا التقديم والتأخير دلالة وغرض بلاغى؛ فقدم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذى هو شعار أهل النعيم، تشريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله، ثم قدم فى التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم.

يقول الشاعر :

ولحظة ومحياه وقامته بدر الدجى وقضيب البان والراح

بدر الدجى عائد على المحيا الذى هو الوجه، وقضيب البان عائد على القامه، والراح وهى الخمر عائد على اللحظ.

كقول ابن حيوس:

كيف أسلو وأنت حقف وغصن وغزال لحظا وقدا وردفا

الحقف بكسر الحاء: وهو الرمل المتراكم الذى معه اعوجاج يشبه به الردف فى العظم والاستدارة.؛ فاللف فى (حقف وغصن وغزال)، والنشر فى (لحظا وقدا وردفا) واللحظ يرجع إلى الغزال، والقد يرجع الى الغصن، والردف يرجع الى الحقف.

وضم الكلمات يعطينا نوع من التشبيه البليغ المحذوف الأداة؛ فالشاعر يذكر مواضع الجمال فى المحبوبة ويشبه جمال عينيها بالغزال، وقدها وقوامها بالغصن وردفها بالحِقف.

وقول الفرزدق:

لقد خنت قوما لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا وراءک شزرا بالوشيج المقوم

طريد دم: مطارد مطلوب لثأر، المغرم: الدّين، شزرا من شزر بمعني طعن عن يمينه وعن شماله، الوشيج: شجر الرّماح، المقوّم: المستقيم لا عوج فيه.

لف صفات (طريد دم ومدين) ثم نشر(العطاء وطعن الرماح) مع اختلاف فى الترتيب، فقم العطاء علي الطعن وما العطاء إلا لونين من البذل عطاء مال وعطاء نفس (بذلها) فقدم العام علي الخاص فكان أبلغ.

(٣) يأتى على جهة الإجمال من قبيل اللف والنشر.

ومنه قوله تعالي: **(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** (البقرة:١١١)

فإن الضمير فى قالوا لأهل الكتاب من اليهود والنصاري، والمعني: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصاري لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلي كل فريق قوله، وأمنا من اللبس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، وقد جمعهما فى الواو لاتفاق وجه زعمهما نجاتهما معا، واختلفا فى إيثار كل منهما نفسه علي الآخر دون صاحبه، وما أجمل الإيجاز فى هذه الآية التى لو فصلت لأعطت كلاما كثيرا لا يفى بالغرض كما وفي أسلوب اللف والنشر هنا،

وبلاغة اللف والنشر تكمن فى ذكر اللف مطويا فيه حكمة أو ما يتعلق به، فهو يهيىء النفوس ويعدها لتلقى ما يذكر بعد من النشر العائد على اللف، فاذا ما ذكر النشر بعد أن وقع فى النفس موقعه تمت الفائدة أحسن تمام وتحقق الغرض أبلغ تحقيق؛ لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة[1]، ولست مع من يري البديع حلية وتحسينا عرضيا بل هو أساليب متناثره فى التراث الشعرى والنثرى للعرب، وهو تفنن فى الأسلوب حسب المقام والمناسبة ، ولكن آفة البديع التكلف والزيادة فى غير فائدة.

[1] علم البديع دراسة تاريخيه وفنيه، د.بسيونى عبد الفتاح، ص٢١٢.

المذهب الكلامي

هو أن يورد المتكلم علي صحَّة دعواه حُجَّة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب.

فاحتجاج المتكلم علي المعني المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام الذى هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية، وهو الذى نسبت تسميته إلي الجاحظ، وزعم ابن المعتز أنه لا يوجد فى الكتاب العزيز، وهو كثير فى القرآن الكريم؛ يقول ابن حجة الحموى ردا علي ابن المعتز: "وليس عدم علمه مانعا علم غيره، إذ لم يستشهد علي هذا المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن، وأصح الأدلة فى شواهد هذا النوع وأبلغها.

وقد جاء فى القرآن كثير من الشواهد عليه منها:

كقوله تعالي: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)** (الأنبياء:٢٢) واللازم وهو الفساد باطل، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل، وقال تعالي: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) (المؤمنون:٩١)، وفساد الكون لتعدد الآلهة ولكن الكون لم يفسد فليس هناك إله غير الله سبحانه.

وقوله تعالي فى تعجيز الكافرين وتحديهم: **(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّي تُؤْفَكُونَ)**

(يونس:٣٤)، وعلي طريقة السؤال الذى يحتاج إلي إجابة من خلال ذكر المحاجة؛ وقوله: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل٦٤) (وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَي فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم:٢٧)؛ أى: والإعادة أهون عليه من البدء والأهون من البدء أدخل فى الإمكان من البدء فالإعادة أدخل فى الإمكان من البدء وهو المطلوب.

وحجاج إبراهيم عليه السلام لقومه كثير فى القرآن الكريم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَي كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَي الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَي الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(الأنعام:٧٤-٧٨)

وهنا تدرج فى الحجة من الكوكب إلي القمر إلي الشمس ليزلزل معتقدهم الفاسد؛ أى الآلهة يعبد وإذا كان الإتفاق علي مبدأ الظهور والأفول كدليل علي ضعف المعبود؛ فكل آلهتهم ليست بآلهة بل هناك إلها أكبر للكون، مما دعاه إلي البراءة مما يعبدون.

ومنه حجاجه لقومه ما ذكره القرآن: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٢)

سؤال إبراهيم عليه السلام: ما تعبدون، إجابتهم: نعبد أصناما، سأل هل يسمعون، هل ينفعون، هل يضرون، لم يجيبوا علي أسئلته؛ لأن هذا لا يحدث ولن يحدث، ولو قال واحد منهم حدث سيكذبه الآخرون، أجابوا-كبارهم أو المترفون منهم- بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وهى إجابات المعاندين فى كل الأمم نسبة ما ورثوا إلي الآباء كأن هذا يعصمهم من الجواب، ولكن إبراهيم عدد ما ينعم به إلهه فى مقابل عجز آلهتهم المزعومة.

وقوله تعالي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨) ادعي اليهود والنصاري عدم وقوع العذاب عليهم؛ لانهم أبناء الله؛

والمذهب الكلامى يقتضى أنهم يعذبون والبنون لا يعذبون فليسوا ببنين له، وقد تضاربت أقوالهم لأنهم هم من قال: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَي اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة:٨٠)؛ لذا فقد اختلفت أقوالهم عن أنفسهم وتضاربت.

وقوله تعالي: **(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)** (الزخرف:٨١) "أى: أنا أول مَن يخضع لله، كان له ولد أو لم يكن، وقد قام البرهان علي نفيه. أو: وإن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أول مَن يعظم ذلک الولد، وأسبقكم إلي طاعته، والانقياد إليه، كما يعظم ولد الملِک، لتعظيم أبيه وهذا الكلام وارد علي سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد، وذلک أنه علَّق العبادة بكينونة الولد"[1].

والرسول لم يعظم أحدا إلا الله ولا انقاد لأحد غيره، إذن فليس لله ولد كما يزعمون، وقريب منه قول سعيد بن جبير للحجاج، وقد قال له الحجاج حين أراد أن يقتله: لأبدلنک بالدنيا نارا تلظي؛ فقال سعيد:

لو عرفت أن ذلک إليک ما عبدت إلها غيرک، فنبهه إلي خطئه بأن إدخال النار من قدرة الله تعالي.

[1] البحر المديد لابن عجيبة: ٥/ ٢٧٢.

ومن الحديث النبوى قوله صلي الله عليه وسلم لأبى ذر الغفارى: **(واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيتُمْ كثيرًا)**[1]، وبيان الدليل أن يقال: لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا، فلم تعلموا ما أعلم فهذان قياسان، وحال الناس كحال من ينكر ذلک كخطابهم خطاب المنكر عند الحديث عن الموت، قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِکَ لَمَيِّتُونَ﴾(المؤمنون:١٥)، فخاطبهم خطاب المنكر للموت مع معرفتهم الكافية به؛ لانصرافهم عن الاستعداد له.

ومن المذهب الكلامى فى الشعر العربى؛ قول النابغة يعتذر إلي النعمان:

حلفت فلم أترک لنفسک ريبة وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة لمبلغک الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوک وإخوان إذا ما مدحتهم أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلک فى قوم أراک اصطفيتهم فلم ترهم فى مدحهم لک أذنبوا

والمستراد: موضع يتردد فيه لطلب الرزق؛ يقول أنت أحسنت إلي قوم فمدحوک وأنا أحسن إلي قوم فمدحتهم فكما أن مدح أولئک لا يعد ذنبا فكذلک مدحى لمن أحسن إلى لا يعد ذنبا، فكأنه ألزمه الحجة دون عناء.

ومنه قول الفرزدق:

لِكُلِّ اِمرِئٍ نَفسانِ نَفسٌ كَريمَةٌ وَأُخري يُعاصيها الفَتي أو يُطيعُها

[1] سنن الترمذى: رقم ٢٣١٢ .

وَنَفسُکَ مِن نَفسَیکَ تَشفَعُ لِلنَدي إِذا قَلَّ مِن أحرارِهِنَّ شَفیعُها

لكل إنسان نفسان: مطمئنة تأمر بالخير، وأمارة تأمر بالشر، والإنسان يعاصى الأمارة مرة ويطيعها أخري، وأنت أيها الممدوح نفسک الأمارة إذا أمرتک بترک الندي شفعت المطمئنة إلي الأمارة فى الندي فى الحالة التى يقل الشفيع فى الندي من النفوس، فأنت أكرم الناس.

ومنه قول ابن المعتز:

كيف لا يخضر عارضه ومياه الحسن تسقيه

كأنه قال: كل نبت يسقي فهو أخضر، وشارب هذا الغلام نبت ومياه الحسن تسقيه، فيكف لا يخضر.

ومثله قول مالک بن المرجل الأندلسى:

لو يكون الحب وصلا كله لم تكن غايته إلا الملل

أو يكون الحب هجرا كله لم تكن غايته إلا الأجل

إنما الوصل كمثل الماء لا يستطاب الماء إلا بالعلل

والعلل: يقال: "شَرِبَ عَلَلاً" : شَرِبَ ثَانِيَةً أَوْ تِبَاعاً بَعْدَ الشُّرْبِ الأَوَّلِ، والشربة الثانية تسمي عللا؛ أو الشرب بعد الشرب تباعا، فالبيتان الأولان قياس شرطى والثالث قياس فقهى فإنه قاس الوصل علي الماء

وسوق الحجج كثير فى المناظرات وهو باب واسع من أبواب الإقناع، ومنه مناظرات أبى بكر الباقلانى بالقسطنطينية بين يدى ملكها، مع بطارقته ونبلاء ملته، مناظرات ومحاورات: وقد سأله الملک عن رسول الله صلي

الله عليه وسلم: هل كان نبيكم يغزو ؟ قال أبو بكر: نعم، قال الملک: فهل كان يقاتل فى المقدمة؟ قال: نعم، قال الملک : فهل كان ينتصر؟ قال أبو بكر: نعم، قال الملک: فهل كان يهزم ؟ قال أبو بكر: نعم، فقال الملک ساخرا: عجيب! نبى يهزم ؟! فقال أبو بكر: أإله ويصلب ؟! فبهت الملک.

والتراث العربى ملىء بالمناظرة والحجاج وإظهار ثوابت الدين بالأدلة والبراهين.

ومن المذهب الكلامى قول شوقى مدافعا عن الإسلام ردا علي قول المستشرقين إن الاسلام انتشر بالسيف دون الرفق؛ يقول:

قالوا غَزَوتَ وَرُسلُ اللَهِ ما بُعِثوا ... لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جاؤوا لِسَفكِ دَمِ

جَهلٌ وَتَضليلُ أَحلامٍ وَسَفسَطَةٌ ... فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ

لَمّا أُتي لَکَ عَفواً كُلُّ ذى حَسَبٍ ... تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ

وَالشَرُّ إِن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ ... ذَرعاً وَإِن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ

سَلِ المَسيحِيَّةَ الغَرّاءَ كَم شَرِبَت ... بِالصابِ مِن شَهَواتِ الظالِمِ الغَلِمِ

لَولا حُماةٌ لَها هَبّوا لِنُصرَتِها ... بِالسَيفِ ما اِنتَفَعَت بِالرِفقِ وَالرُحَمِ

لَولا مَكانٌ لِعيسي عِندَ مُرسِلِهِ ... وَحُرمَةٌ وَجَبَت لِلروحِ فى القِدَمِ

لَسُمِّرَ البَدَنُ الطُهرُ الشَريفُ عَلي ... لَوحَينِ لَم يَخشَ مُؤذيهِ وَلَم يَجِمِ

جَلَّ المَسيحُ وَذاقَ الصَلبَ شانِئُهُ ... إِنَّ العِقابَ بِقَدرِ الذَنبِ وَالجُرُمِ

أَخو النَبِيِّ وَروحُ اللَهِ فى نُزُلٍ ... فَوقَ السَماءِ وَدونَ العَرشِ مُحتَرَمِ

عَلَّمتَهُم كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ ... حَتّي القِتالَ وَما فيهِ مِنَ الذِمَمِ

وضح شوقى فى حججه التى فند بها ادعاءات المستشرقين بأسلوب الإقناع المعتمد علي القرائن والبراهين، فى قيمة السيف لكن بعد الرفق والرحمة، وهو ما فعله الإسلام ومن قبله المسيحية علي حد سواء.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

أول من ذكر هذا النوع من البديع عبد الله بن المعتز، وعده من محاسن الكلام ، وسمّاه (تأكيد مدح بما يشبه الذم)، ومن البلاغيين من يسمى هذا الفن البديعى (الاستثناء) لاعتماده فى التركيب عليه.

وهو ضربان:

الأول: أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها.

كقول النابغة الذبيانى:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

الفلول: وهو الثلم يصيب السيف فى حده، كسور تلحق حده، وقراع الكتائب: مضاربة الجيوش .

والشاعر هنا نفي أولا عن ممدوحيه صفة العيب ثم عاد فأثبت لهم بالاستثناء عيبا هو أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب، وهذه ليست فى الواقع صفة ذم وإنما هى صفة مدح أثبتها وأكدها بما يشبه الذم.

وقد ذكر العيب أولا ونفاه فى محاولة لخداع السامع بنفى العيب عنه، وأداة الاستثناء يعنى أن هناك شيئا ناقصا مستثني من نفى العيب جملة وهذا العيب المستثنى ينتظره السامع بحرارة ليعرف ما خفى من صفات الذم، وفى ظل كل هذه الإيماءات والإشارات إلي وجود عيب لا محالة،

يفاجئنا المتكلم بذكر صفة مدح؛ فتقع من المتلقى موقعا حسنا ويتلقي ذلك بالرضا والقبول، إذ فوجئ بما لا يتوقع.

بل أثبت لهم شجاعة علي شجاعة، فالكسور التى تلحق بالسيف كناية عن شدة المقاتلين وبأسهم فى الحروب.

وكقول الآخر:

ويعدل في شرق البلاد وغربها على أنه للسيف والمال ظالم

نسب إلي ممدوحه العدل ثم جاء بأداة يفهم منها تقليل المدح والاتجاه إلي بيان بعض الخصال غير الكريمة فى ممدوحه؛ فإذا به يمدحه بصفات أخري فهو ظالم لسيفه يخوض به الحروب ليل نار لا يريح سيفه، كما أنه يظلم ماله لأنه كثير العطاء.

ومنه فى القرآن الكريم؛ نحو قوله تعالي: (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا۞لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (مريم:٦١-٦٢)

وقال تعالي: **(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)** (الواقعة:٢٥-٢٦)

فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوي الشيء ببينة، وأن الأصل فى الاستثناء الاتصال، فذكر ذاته قبل ذكر ما بعدها يوم إخراج الشيء مما قبلها، فإذا وليها صفة مدح جاء التأكيد.

جاء بسماع اللغو والتأثيم وهو عيب ثم نفاه ولكنه جاء بأداة الاستثناء التى توهم وجود شيء مستكره سماعه، ولكنه أثبت هنا صفة مدح أخري.

وكأن ما بين التركيبين قبل الاستثناء وبعد تأكيد وتكرار علي أن الجنة لا يسمع فيها إلا كل خير وسلام.

ومنه قوله تعالي: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ)** (المائدة:٥٩) فالعيب فى نظر المشركين إيمانهم وهو يؤكد المدح وينفى عنهم العيب.

وأمثلة هذا الضرب من الشعر العربى كثيرة ؛ نحو:

وقول حاتم الطائى:

وما تشتكى جارتى غير أننى إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع أهلها إليها ولم تقصر علىّ ستورها

من مكارم الأخلاق عند العرب حفظ الجوار المال العرض والنفس، وهو ينفى عن نفسه كل عيب، ويؤكد هذا الذى نفاه بذكر صفة من أحسن الصفات وهى حفظ حقوق الجار.

قول الشاعر أبى هفّان:

ولا عيب فينا غير أن سماحنا أضرّ بنا، والبأسَ من كل جانب

فأفني الردي أرواحنا غير ظالم وأفني الندي أموالنا غير عائب

قال نافيا العيب عن نفسه وقومه واتي أداة الاستثناء ليوهم ذما؛ فجاء

بمدح علي مدح؛ فالسماحة والبأس أضرّا بهم وهذا ليس بعيب علي الحقيقة، ولكنه توكيد مدح.

وقول ابن الرومى:

ليس له عيب سوي أنه لا تقع العين علي شبهه

أثبت الشاعر صفة مدح وهى انفراده بالخير والكرم، فليس له مثيل يشبهه، فجعل انفرادَه بالحسن وعدم وقوع العين علي شبيه له عيبًا، فزاد بهذا من حسنه وأكد جماله.

وقول شاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

كيف ينسي الإنسان وطنه إلا إذا وجد السكينة والراحة والتقدير فى مكان آخر، والشاعر نفي عن هؤلاء كل عيب إلا عيبا واحد هو أن من يحل ضيفا بهم ينسي أهله ووطنه وهنا يؤكد لهم صفات المدح التى خالها السامع صفات ذم.

وقول أبى هلال العسكرى:

ولا عيب فيه غير أن ذوى الندي خساس إذا قيسوا به ولئام

جعله فوق كل كريم، وأكد له الكرم بعد أن أوهم بذكر صفه ذم.

وقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير شح نسائهم ومن المكارم أن يكن شحاحا

جعل الشح هنا بمعني الحفاظ علي أموال الزوج فلا يسرفن فى الإنفاق، وهى من الصفات الحميدة، وربما بالغ فى المحافظة فجعلها شحا.
ومنه قول صفى الدين الحلى:

لا عيب فيهم سوي أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وحَشَم الرجلِ: خاصّته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، كالأقارب والخدم وكل من يغضب لغضبه ويرضي لرضاه.
وقول الآخر:

ولا عيب فى معروفهم غير أنه يبين عجز الشاكرين عن الشكر

والثانى: أن يثبت لشىء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخري له.

كقول النبى صلي الله عليه وسلم: **(أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش)** ذكر صفة مدح وهى أنه صلي الله عليه وسلم أفصح العرب وأتي بأداة استثناء توهم نقص هذا المدح ولكنه جاء بصفة مدح أخري وهى أنه من قريش، وقرشى أفصح العرب.
ومنه قول النابغة الجعدى:

فتي كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

صفة كمال الأخلاق والصفة الثانية أنه جواد كريم، وهذه تأكيد للمدح الأول وتثبيت له.
ومثل هذا كثير فى الشعر العربى:

فتي تم فيه ما يسر صديقه علي أن فيه ما يسىء الأعاديا

ومثله قول الآخر:

هو البحر إلا أنه البحر زاخرا سوي أنه الضرغام لكنه الوبل

الشاعر يشبه الممدوح بالبحر وهذه صفة مدح، ثم أكدت هذه الصفة بصفات مدح أخري هى: أنه البحر زاخرا، وأنه الضرغام شجاعة، وأنه الوبل أى المطر غزارة.

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو ضربان:

الضرب الأول: أن يستثني من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذمّ بتقدير دخولها فيها؛ نحو: **فلان لا خير فيه إلّا أنه لا يحفظ ودا ولا عهدا ولا سرا.**

ويقول الشاعر أيضا من هذا الضرب:

فإنّ من لا منى لا خير فيه سوي وصفى له بأخسّ الناس كلّهم

فصفة المدح (خير) فى فلان منفيّة ب (لا)، وقد استثنى من هذه الصفة الممدوحة المنفيّة صفة ذم (بالأخس) وهى داخلة فى الصفة المنفية.

فصفة المدح (خير) فى فلان منفيّة ب (لا)، وقد استثنى من هذه الصفة الممدوحة المنفيّة صفة ذم (عدم حفظ الود والوعهد والسر) وهى داخلة فى الصفة المنفية.

ونحو: **لا فضل للقوم إلا أنهم لا يعرفون لليتم حقا.**

فصفة المدح (فضل) فى فلان منفيّة ب (لا)، وقد استثنى من هذه الصفة الممدوحة المنفيّة صفة ذم (حق اليتيم) وهى داخلة فى الصفة المنفية.

ومنه قولنا: **فلان لا أمل فيه إلّا أنّه يسىء الجوار.**

فصفة المدح (أمل) فى فلان منفيّة ب (لا)، وقد استثنى من هذه الصفة الممدوحة المنفيّة صفة ذم (يسىء الجوار) وهى داخلة فى الصفة المنفية.

الضرب الثانى: أن يثبت للشيء صفة ذم، ثم يؤتي بعدها بأداة استثناء تليها صفة ذم أخري له؛ نحو: **فلان مغرور إلّا أنّه أحمق.**

فصفة الذم (مغرور) مثبتة غير منفيّة أتى بعدها بأداة الاستثناء (إلّا) ثم تليت أداة الاستثناء بصفة ذم أخري هى (أحمق).

ونحو: **فلان كذاب إلّا أنّه منافق.**

ويقول الشاعر:

هو الكلب، إلّا أنّ فيه ملالة وسوء مراعاة وما ذاك فى الكلب

فصفة الذم (الكلب) مثبتة غير منفيّة أتى بعدها بأداة الاستثناء (إلّا) ثم تليت أداة الاستثناء بصفة ذم أخري هى (ملالة وسوء مراعاة).

خلا من الفضل غير أنّى أراه فى الحمق لا يجاري

فصفة الذم (خلوه من الفضل) مثبتة غير منفيّة أتى بعدها بأداة الاستثناء (إلّا) ثم تليت أداة الاستثناء بصفة ذم أخري هى (الحمق).

وقول القائل:

لئيم الطّباع سوي أنّه جبان يهون عليه الهوان

فصفة الذم (اللؤم) مثبتة غير منفيّة أتى بعدها بأداة الاستثناء (إلّا) ثم تليت أداة الاستثناء بصفة ذم أخري هى (الجبن)، والشاعر العربى نفي عن نفسه صفتى اللؤم والجبن وجعلهما أحط الصفات؛ يقول السموءل بن عادياء:

إِذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ

وَإِن هُوَ لَم يَحمِل عَلي النَفسِ ضَيمَها فَلَيسَ إِلي حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ

الأسلوب الحكيم

عرفه الخطيب القزوينى بأنه: تلقِّى المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه علي خلاف مراده؛ تنبيهًا علي أنه الأولي بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهًا علي أنه الأولي بحاله، أو المهم له"[1]، وسماه الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين: اللغز فى الجواب، وأطلق عليه الخطيب القزوينى: المغالطة، وعزاه إلي عبد القاهر الجرجانى، كما أطلق علي هذا الفن: الكلام بالموجِب، عند ابن أبى الإصبع المصرى فى كتابه (بديع القرآن).

أما تسمية الأسلوب الحكيم فهى تسمية السكاكى فى كتاب مفتاح العلوم.

ومرة يقال: أسلوب الحكيم نسبة إلي المتكلم، أو الأسلوب الحكيم نسبة إلي بلاغة النص وحكمته، وفى الحالين هى بلاغة المتكلم الذى اختار ما يناسب المقام والسامع.

وسر هذا الفن أنه "قد يخاطبك إنسان أو يسألك سائل عن أمر من الأمور، فتجد من نفسك ميلًا إلي الإعراض عن الخوض فى موضوع الحديث، أو الإجابة عن السؤال لأغراض كثيرة؛ منها: أن السائل أعجز من أن يفهم الجواب علي الوجه الصحيح، وأنه يَجْمُل به أن ينصرف عنه إلي النظر فيما هو أنفع له وأجدي عليه، ومنها أنك تخالف

[1] الإيضاح فى علوم البلاغة، ٢/ ٩٤.

مُحدِّثَک فی الرأی ولا ترید أن تَجْبَهَهُ برأیک فیه، وفی تلک الحال وأمثالها تصرفه فی شیء من اللباقة عن الموضوع الذی هو فیه إلي ضرب من الحدیث تراه أجدر وأولي."[1]، وهو أسلوب فی صرف المتلقی إلي أمر مهم هو أنفع له أو کان الأولي أن یسأل عما یجب السؤال عنه لا أن یوجه جهده إلي ما لا یفید، وأمثلته کثیرة منها:

قوله تعالي :(یَسْأَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِیَ مَوَاقِیتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَي وَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة: ۱۸۹) فقد سأل أصحاب رسول االله صلي الله علیه وسلم عن الهلال: لمَ یبدو صغیرًا مثل الخیط، ثم یعظم ویستدیر، ثم ینقص ویدق حتي یعود کما کان؟ فنزلت الآیة، وفیها صرفهم إلي بیان الحکمة من الأهلة، وکأنه یقول لهم: کان الأولي أن تسألوا عن حکمة خلق الأهلة، لا عن سبب تزایدها فی أول الشهر وتناقصها فی آخره، فالسؤال عن أمر لا فائدة منه، أو أنهم ترکوا الأنفع وسألوا عن غیره، فجاء الجواب تذکیرا وتعدیلا لما ترک الاهتمام به.

وفی الآیة تناسب فی بین ذکر الأهلة وإتیان البیوت ففی قوله تعالي: (وَلَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) فقد کان الأنصار وغیرهم من العرب، إذا أحرموا، لم یدخلوا البیوت من أبوابها، تعبدا بذلک،

---

١ البلاغة الواضحة، لعلی الجارم، ص ٢٩٥.

وظنا أنه بر. فأخبر الله أنه ليس ببر؛ لأن الله تعالي، لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التى هى قاعدة من قواعد الشرع، ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغى فى كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، فيجب أن يكون السؤال فى موضعه كما يجب أن يكون الفعل أيضا.

ومنه قوله تعالي : (يَسْأَلُونَکَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَي وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (البقرة:٢١٥)، فالمسلمون سألوا النبى صلي الله عليه وسلم ماذا ننفق من أموالنا، فصرفهم عن هذا ببيان المصرف، لأن النفقة لا يعتد بها إن لم تقع موقعها.

سأل رجل بلالا مولي أبى بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة: من سبق؟ قال :سبق المقربون .قال :إنما أسألک عن الخيل .قال :وأنا أجيبک عن الخير. فترک بلال جواب لفظه إلي خبر هو أنفع له.

وقال الحجاج لرجل من الخوارج :أجمعت القرآن؟ قال :أمتفرقا كان فأجمعه؟ قال أتقرؤه ظاهرا؟ قال :بل أقرؤه وأنا أنظر إليه .قال: أفتحفظه؟ قال :أفخشيت فراره فأحفظه؟ قال ما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملک؟ قال لعنه الله ولعنک .قال :إنک مقتول فكيف تلقي الله؟ قال ألقي الله بعملى، وتلقاه أنت بدمى.

وقول الشاعر:

قال ثقّلت إذا أتيت مرارا قلت ثقّلت كاهلى بالأيادى

قال طوّلت قلت أوليت طولا قال أبرمت قلت حبل ودادى

فصاحب الشاعر يقول له : قد ثقلت عليک وحملتک المشقة بكثرة زياراتى؛ فيصرفه الشاعر عن رأيه فى أدب وظرف وينقل كلمته من معناها إلي معني آخر ، ويقول له : إنک ثقلت كاهلى بما أغدقت علىّ من نعم، وفى البيت الثانى يقول صاحبه : قد طولت إقامتى عندک وأبرمتک؛ أى: جعلتک برما ملولا ، فيرد الشاعر عليه مرة أخري فى أدب ولطف؛ قائلا: أبرمت قلت حبل ودادى.

ومنه أيضا ما جري بين القبعثرى والحجاج، فقد توعده الحجاج بقوله : ولأحملنک علي الأدهم «فقال القبعثرى» :مثل الأمير يحمل علي الأدهم والأشهب، فقال له الحجاج : أردت الحديد، فقال القبعثرى: لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا، أراد الحجاج بالأدهم القيد، وبالحديد المعدن المخصوص، وحملهما القبعثرى علي الفرس الأدهم الذى ليس بليدا، فالكلام هنا قد حمله القبعثرى علي خلاف مراد الحجاج قائله.

ويتجلي الأسلوب الحكيم فى مناظرة سعيد بن جبير مع الحجاج بن يوسف، راجع القصة، ويمكننا القول إنه: كل جواب خالف سؤالا لنكتة.

الفصل الثانى

فنون

البديع اللفظي

فى هذا الفصل ندرس فنون البديع اللفظى وهى مجموعة من الفنون اعتمدت فى تأثيرها علي السامع علي اللفظ يتلوه المعني، وجرس اللفظ يحدث تأثيره فى النفوس، ويساعد علي التواصل عن طريق وقع اللفظ علي الأذن.

وقد اهتم البلاغيون فى دراستهم لعلم البلاغة بدراسة فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام، وجعلوا لذلک شروطا منها:

ما يتصل بفصاحة الكلمة؛ أن تخلو الكلمة من تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس الصرفى؛ يقول د.محمد أبو موسي:"هى أن تكون لينة سهلة النطق تتجاور أصواتها تجاورا لينا هادئا، وأن تكون مألوفة جرت علي الألسنة، ورنت أصداؤها فى محافل الشعر والأدب، وأن تكون واردة علي قواعد تصريف الكلمات"[1]

فالسهولة واليسر علي اللسان والطرافة واللطافة فى الآذان، ومعايير الانتشار والتداول هى من شروط فصاحتها بعد مراعاة تكوينها الصوتى واللفظى.

ثم يقول: "وأبرز سبب يذكر لتنافر الحروف هو قرب مخارجها، أى أن تكون حروف الكلمة المتتابعة تخرج من مخارج قريبة جدا، وهذا -كما قالوا- يشبه مشى المقيد"[2]

---

[1] خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعانى، د. محمد محمد أبو موسي: ص٦٢.

[2] السابق، ص٦٢.

والغرابة نحو:كلمة الطرموق: الطين، والاستمصال: الإسهال، والاطرغشاش والإبرغشاش للشفاء، وهذه من الكلمات التى يرفضها البلاغيون لثقلها علي اللسان والآذان.

وفصاحة الكلام بأن يخلو من عيوب منها: تنافر الكلمات مجتمعة، وضعف التأليف، والتعقيد اللفظى، التعقيد المعنوى، كثرة التكرار، تتابُع الإضافات.

وهذه العيوب منها ما يعتمد علي الفنون اللفظية والجرس الصوتى، ولكى تكون الجملة فصيحة بهذه المقاييس لابد أن تعتمد فى أساسها علي اختيار كلماته، وقد تكون كل كلمة فصيحة فى موضعها مفردة ولكن نظم الكلمات لا يعطيها هذه المزية فى التركيب.

ومن فنون البديع اللفظى التى تسهم فى الجمال الموسيقى للغة الأدب شعره ونثره، وذكرها دون تكلف مع حاجة المقام إليها يجعل لها دور فى عمليتى الإقناع والإمتاع:

- الجناس
- السجع/ الفاصلة
- رد الأعجاز علي الصدور
- لزوم مالا يلزم
- التصريع
- وفنون أخري؛ كالاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح.

الجناس

ذكر ابن المعتز الجناس، قائلا: "أن تجيء الكلمة تجانس أخري فى بيت شعر أو كلام ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها"[1]، وهو بذلك كما عده ابن المعتز ضرب من التكرار، وليست قضية الجناس التكرار فحسب بل له فوائد موسيقية وتشويقية وتأثيرية، وما يحدثه التشابه فى الألفاظ وأثره أن"تحدث بالسمع ميلا إليه، فإن النفس تتشوق إلي سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلي استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع فى النفوس وفائدة"[2]

وقد اهتم البلاغيون بالجناس وعنوا به عناية كبيرة فى مصنفاتهم؛ والجناس: هو تشابه اللفظين فى النطق مع اختلاف المعني، ومنه الجناس التام وهو أن يتفقا فى نوع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها، ونوع آخر من الجناس هو الجناس غير التام ما اختلف فى ركن من هذه الأركان.

أولا: الجناس التام وأنواعه:

تتنوع أشكال الجناس التام بين المماثل، والمستوفى، والمركب؛ وينقسم المركب إلي مركب مرفو، ومتشابه، ومفروق، وفى السطور القادمة بيان ذلك.

---

[1] البديع : لعبدالله بن المعتز:ص٢٥.

[2] جوهر الكنز، ابن الاثير الحلبى:ص ٩١.

١- الجناس المماثل:

الجناس المماثل: ما كان من نوع واحد؛ كأن يكون بين اسمين؛ نحو قوله تعالي: **(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)** (الروم:٥٥)

موضع الاستشهاد فى ذكر لفظ الساعة مكررا مع اختلاف معناه، وجاء الجناس مماثلا من نوع واحد وهو الاسم، وجاء فى سورة الروم ثلاث آيات تعرض لقيام الساعة مع اختلاف الخبر فيها، فيقول تعالي:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)(١٢)؛ أى: ييأسون ويتحيرون، والإبلاس: الحزن والانكسار، وقيل: هو انقطاع الحجة، وبعدها فى السورة نفسها: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) (١٤)؛ فالمؤمن فى روضة والكافر فى عذاب؛ ثم ذكر الآية موضع الاستشهاد فى الآية ٥٥ من السورة.

ومثله قوله تعالي: **(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۞ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ)** (النور: ٤٣-٤٤)

والأبصار جاءت بمعنيين: الأول النظر، والثانى: الاعتبار والعقول.

وقول أبى تمام:

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب

صدور: الأولي بمعني مقدم الرمح، والثانية قلب الجيش.

ومنه وقوله تعالي: **(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٧- ٩)** والأولي الشرائع، والثانية القضاء والقدر، والثالثة آلة الوزن.

٢- **الجناس المستوفي:** ما كان بين نوعين اسم وفعل.

نحو قول أبى تمام أيضا:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدي يحيي بن عبد الله

الجناس تام مستوفى بين (يحيا) الفعل و(يحيي) الاسم، حسن أن يعيد اللفظة مع اختلاف المعني ليزيد زيادة غير متوقعة من السامع، كما حسن تكرار الحياة اسما وفعلا ليضفى علي البيت راحة نفسية وحسن اختيار.

ومثله قول الآخر ولكنه هنا كان ينشد له الحياة فلم ينل ما أراد، وبالفعل أشاع الحياة فى البيت وقد كان ينشدها لابنه، فكان ذكرها تسلية له؛ يقول الشاعر:

وسميته يحيي ليحيا فلم يكن إلي رد أمر الله فيه سبيل

وقد رزق الله تعالي زكريا عليه السلام بيحيي عليه السلام واختار له اسمه، ومات شهيدا ليكون حيا عند ربه، قال تعالي: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَي لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) (مريم:٧)

قول الشاعر:

إذا ما نازعتك النفس حرصا فأمسكها عن الشهوات أمسك

ولا تحرص ليوم أنت فيه وعد فرزق يومك رزق أمسك

بين فعل الأمر بالإمساك عن الشهوات، وبين كلمة الأمس وهى اسم

إذا رماك الدهر فى معشر قد أجمع الناس علي بغضهم

فدارهم ما دمت فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم

بين فعل الأمر (دارهم) وبين (دارهم) بمعني منازلهم، وفعل الأمر (أرضهم) وبين (أرضهم) بلادهم.

ومن جميل هذا الضرب؛ قول أبى الفتح البستى:

قيل للقلب ما دهاك أجبنى قال لى بائع الفرانِ فرانى

ناظَرَاه فيما جني ناظِرَاه أو دَعَانى أمُت بما أودَعَانى

فى النص ثلاثة مواضع للجناس؛ الأول: بين (الفران) اسم، و(فرانى) فعل وهو من الجناس التام المستوفى؛ والثانى: بين (ناظَراه) من فعل المناظرة ومعناه: جادلاه وسائلاه، (وناظِراه) اسم هى عيناه، وهو من الجناس التام المستوفى، والمراد: أنه سحره بنظراته الساحرة، الثالث: فهو بين (دعانى) اتركانى و(أودعانى) ما تركته عيناى من وجد وعناء.

وبين فعل وحرف؛ نحو قوله تعالي: **(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) (المؤمنون:٩١) بين (علا)الفعل و(علي) الحرف**

٣- **جناس التركيب:** وهو ما كان أحد لفظيه مركبا؛ وهو أنواع:

أ- **الجناس المركب المرفو:** إذا كان مركبا من كلمة وبعض كلمة. كقول الحريرى:

ولا تله عن تذكار ذنبک وابکه بدمع يحاکى الوبل حال مصابه

ومثل لعينيک الحِمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم صابه

الوبل: المطر الغزير، والحمام: الموت.

التفنن فى الجناس أن يخرج عن أن يقع بين كلمتين إلي أكثر من ذلک، ويساعده علي ذلک الجرس الصوتى الحاصل بين الألفاظ الأولي(مصابه) (م صابه) الميم من الكلمة السابقة مع كلمة لتحدث جرسا موسيقيا يوهم باكتمال الجناس.

ب- **الجناس المركب المتشابه**: مركب من من كلمتين مع اتفاق فى الخط؛كقول أبى الفتح البستى:

إذا ملک لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة

كلمتان هما (ذا هبة) أى: صاحب هبة، فيهما اتفاق فى الخط مع كلمة أخري هى كلمة (ذاهبة) مندثرة.

ج- **الجناس المركب المفروق**: مركب من كلمتين مع عدم الاتفاق فى الخط.

كقول أبى الفتح أيضا:

كلكم قد أخذ الجا م ولا جام لنا

ما الذى ضر مديـ ر الجام لو جاملنا

هنا ظهر الافتراق بين الكلمتين وهو خلاف المتشابه (جام لنا) والجام: الكأس، وكلمة (جاملنا) من المجاملة.

وقول الشاعر:

لا تعرضن علي الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها

فمتي عرضت الشعر غير مهذب عدوه منک وساوسا تهذى بها

وبين كلمة (تهذيبها) من التنسيق والترتيب والمراجعة، وكلمة (تهذى بها) أى: كالمجنون.

تمام الجناس هنا فى تكرار الكلمة نفسها كما فى الجناس المماثل والمستوفى، أو تكرار الكلمة مع الاستعانة بكلمة تجاورها سواء بجزء منها أو من كلمتين، والأصل فى الجناس الصوت لا الخط.

ثانيا: الجناس غير التام

وهو ما اختلف فيه اللفظان فى ركن من هذه الأركان؛ وهى: هيئة الحروف وعددها ونوعها وترتيبها.

١- الجناس المحرف

ويكون الجناس محرفا إذا اختلف اللفظان فى هيئة الحروف (الضبط)؛ أى: فى الحركة والسكون.

نحو قولهم: **(جبة البُرد جنة البَرد)**

البرد(بالضم): الصوف- البرد (بالفتح): انخفاض الحرارة، ويجمع المثال لونا من الجناس غير التام يسمي جناس التصحيف بين كلمتى جُبَّة وجُنَّة، والأولي اللباس، والثانية الوقاية؛ أى: تقى من البرد.

ومنه قوله تعالي: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ۝ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)** (الصافات: ٧٢-٧٣)

الجناس بين الحركة والسكون فى كلمتى (مُنْذِرِينَ/الْمُنْذَرِينَ) فانظر كيف كرر اللفظة مرتين مع اختلاف فى حركاتها وسكناتها، فكان له دور الكشف والبيان عن إنذار الْمُنْذَرِينَ ورفض المُنْذِرِينَ

كقولهم:**(البدعة شَرَك الشِّرك)**

شَرَكُ: حَبَائِلَ الصَّيْدِ، المِصْيَدَةَ، والجمع أشراك.

البدعة توقع صاحبها فى مصيدة مضيعة الوقت علي غير هدي، فلا أدرك سنة أحياها، كما أنه أجهد نفسه فى غير فائدة، وأوقع نفسه فى المحظور واقترب من المخالفة للمنهج السليم مما يقربه من الشرك.

وقول أبى العلاء المعرى:

والحسن يظهر فى بيتين رونقه بيت من الشِّعر أو بيت من الشَّعر

بين كلمتى: (الشِّعر) و (الشَّعر)، والشاعر جمع الحسن فى ظاهر أحدهما وهو بيت الشعر (الخيمة) وبين الشعر(وهو بيت القصيد) ولكل منهما بناء محكم، يزداد حسنا كلما اجتهد صانعه فيه؛ فحسن الجناس هنا.

٢- الجناس المصحف

وجناس التصحيف نسبة إلي الصحف والكتابة ويكون فى اختلاف النقط، ومنهم من يسميه جناس الخط، وهو ما تماثل ركناه خطا واختلفا لفظا.

قوله تعالي: **(وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)** (الشعراء:٧٩-٨٠). بين (يَسْقِينِ) و(يَشْفِينِ) جناس تصحيف.

ومنه قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لشاب أتاه ورأي إزاره يمس الأرض؛ فقال له عمر: **(ارفَعْ ثوبَک فإنَّه أنْقَي لثوبِک وأتْقَي لِربِّکَ)** فبين (أنقي) و(أتقي) جناس مصحف؛ لاختلاف الخط.

ومثله قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا: **(لو كنت تاجرا ما اخترت غير العطر إن فاتنى ربحه لم تفتنى ريحة)** وبين (ربحه) و(ريحه) جناس تصحيف.

ومثله قول أبى فراس:

من بحر جودک أغترف وبفضل علمک أعترف

وقول الشاعر:

فإن حلو فليس لهم مقر وإن رحلوا فليس لهم مفر

٣- الجناس الناقص:

ويكون الجناس فى الاختلاف فى أعداد الحروف فقط، وقد استقر فى أذهان كثير من الدارسين إطلاق الجناس الناقص علي الجناس غير التام باختلاف أنواعه مع أن الجناس الناقص نوع منها، ماكان أحد اللفظين يزيد عن الآخر فى أوله أو وسطه أو آخره.

أ- الجناس الناقص المردوف: وهو ما وقع النقص فيه أول اللفظ

كقوله تعالي: **(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَي رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)**(القيامة: ٢٩-٣٠) وبين كلمتى (الساق) و(المساق) جناس فى موضعه؛ ومنه: **(دوام الحال من المحال)**

المحال: المستحيل، والمعني أن الدنيا تتقلب يوم لک ويوم عليک؛ لذا حرم الله علي الإنسان إزهاق روحه؛ لأن مع العسر يسرا كما قال سبحانه. وقول الشاعر:

فإن حلو فليس لهم مقر وإن رحلوا فليس لهم مفر

والجناس بين كلمتى: (حلوا) و(رحلوا).

ب- الجناس الناقص المكتنف: وهو ما وقع النقص فيه وسط اللفظ؛ كقولهم: (جدى جهدى).

الجد: الحظ، والجهد: المشقة، المعني حظ الإنسان فى الدنيا ما يقدمه من جهد واجتهاد.

ج- الجناس الناقص المطرف: وهو ما وقع النقص فيه آخر اللفظ؛ كقول أبى تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

عواص: جمع عاصية من عصاه ضربه بالسيف أو العصا، وعواصم: من عصمه إذا حفظه وحماه، وقواض من قضي عليه إذا حكم، وقواضب: من قضبه إذا قطعه.

يمدون من أيد عواص علي الأعداء فهى كالسيف تعصمهم وتحميهم، تصول وتجول بأسياف تقضى علي الأعداء وهى قاطعة تبتر الرقاب دون رحمة.

وبين كلمة (عواص) و(عواصم) وبين كلمة (قواض) و(قواضب) جناس مطرف حسن؛ وكما يقول القزوينى أن وجه الحسن فيه يكمن فى المفاجأة؛ يقول: "ووجه حسنة أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم أنها هى التى مضت، وإنما أتى بها للتأكيد حتي إذا تمكن آخرها فى نفسك ووعاه سمعك انصرف عنك ذلك التوهم، وفى هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها"[1]

وقول البحترى:

لئن صدفتَ عنا فربت أنفسٍ صوادٍ إلي تلك الوجوهِ الصوادفِ

صدفت: انصرفت عنا، وصواد: من الصدي وهو العطش، والصوادف:المعرضة، والجناس بين صواد وصوادف فزاد حرفا واحدا. ونحو: الهوي مطية الهوان.

د- الجناس الناقص المذيل: وهو أن يختلف اللفظان بزيادة أكثر من حرف واحد؛ كقول الخنساء:

إن البكاء هو الشفاء من الجوي بين الجوانح

[1] الإيضاح: ص ٣٥٧.

الجناس بين كلمتى (الجوي) و(الجوانح) زادت الخنساء حرفين، والجوانح: الضلوع.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وكنّا متي يغزو النبيّ قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل

القنا: الرماح، القَنْبَلة والقَنْبل جاء فى لسان العرب: طائفة من الناس ومن الخيل، قيل: هم ما بين الثلاثين إِلي الأربعين ونحوه، وقيل: هم جماعة الناس، قَنْبَلة من الخيل، وقَنْبَلة من الناس طائفة منهم، والجمع القَنابِل. ويتبادر إلي ذهن السامع كلمة القنابل المعروفة الآن وهو سلاح شديد الإنفجار، ولكنه ينكر طبعا ورودها بهذا الاسم فى صدر الإسلام؛ فيؤول معناها من خلال ذكر كلمة القنا وهو الرمح إلي أمر يدعم النبى صلي الله عليه وسلم فى الحرب.

٤- **الجناس الذى يعتمد علي الاختلاف فى نوع الحروف**؛ وهو نوعان:

أ- **الجناس المضارع:** وهو الذى لا يقع الاختلاف فيه بأكثر من حرف، ويكون بينهما تقارب فى المخرج.

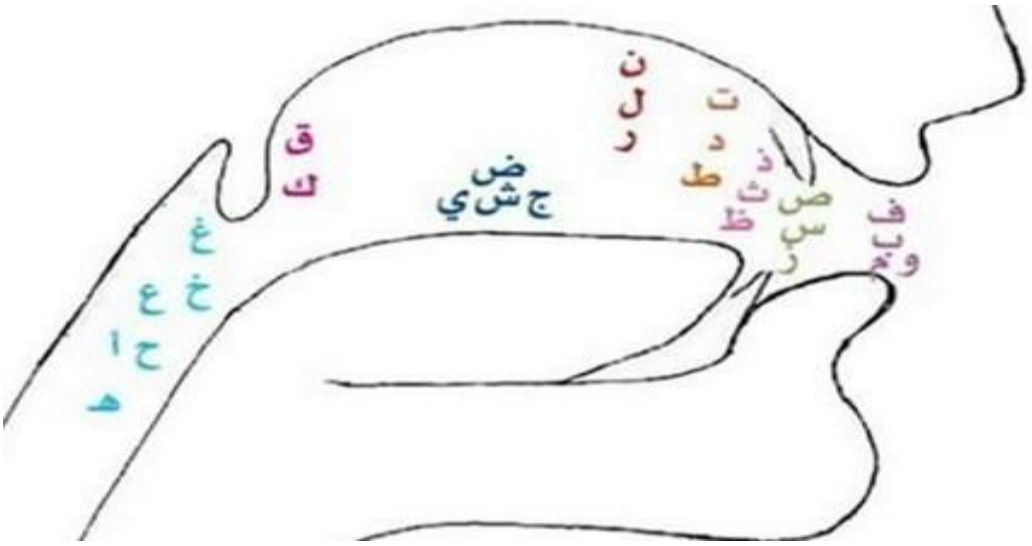

(صورة تظهر مخارج الحروف)

وقد يقع الاختلاف فى أول الكلمة؛ كقول الحريرى: **(بينى وبين كني ليل دامس وطريق طامس)** والكن: الأهل والعشيرة، ليل دامس: شديد الظلام ، وطريق طامس: شديد الخفاء.

والجناس بين (دامس) و(طامس)؛ لاحتلافهما فى نوع الحروف مع تقارب المخرج الدال والطاء، واختار الشاعر كلمتى (دامس وطامس) لبيان الخلاف الشديد بينه وبين قومه.

أو يقع فى الوسط؛ كقوله تعالي: **(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)** (الأنعام:٢٦)

المشركون ينهون غيرهم عن سماع القرآن وينأون ويبتعدون عن سماعه، وبين (يَنْهَوْنَ) و(يَنْأَوْنَ) جناس غيرنام لاختلافه فى نوع الحروف، وهو من المضارع لأن الهاء والهمزة من مخرج واحد.

وقوله تعالي: **(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)** (غافر:٧٥)

كلام الملائكة لأهل النار: ذلكم الذى نزل بكم من العذاب، بسبب فرحكم فى الأرض بالباطل، وبسبب مرحكم وغروركم فيها.

(تَفْرَحُونَ) و(تَمْرَحُونَ) وبين الفاء والميم بينهما تقارب فى المخرج.

وكقوله صلي الله عليه وسلم: **(الخيل معقود فى نواصيها الخير إلي يوم القيامة)**، فبين الخيل والخير جناس مطرف لحدوث النقص فى آخر الكلمة، وقد أحدث اللفظان جرسا موسيقيا ،كما كان الاختيار بليغا فى المزج بين الخيل والخير علي جهة اللفظ، والسياق يحمل الخير؛ فجاء بالخيل وما فى ذكرها ورؤيتها من الجمال والحسن والخير وهو جماع الفضائل؛ ليكون الجناس هنا لا يعتمد علي الجرس للإطراب بل علي ذروة الحسن والروعة، والحث علي اقتنائها والعناية بها وحمايتها.

ومنه قول أبي تمام:

ولم أر كالمعروف تدعي حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانم

وقد يحدث الاختلاف فى الآخر: كقول تعالي: **(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ)** (النساء: ٨٣) وبين (أَمْرٌ) و(الْأَمْنِ) جناس مضارع لتقارب فى المخرج بين (الراء) و(النون).

ب- **الجناس اللاحق:** أن يقع الاختلاف فى نوع الحروف مع تباعد المخرج.

كقوله تعالي: **(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)** (الهمزة:١)

" والهمزة من الهمز: بمعني الطعن فى أعراض الناس، ورميهم بما يؤذيهم، واللّمزة من اللمز: بمعني السخرية من الغير، عن طريق الإشارة باليد أو العين أو غيرهما، وقيل: الهمزة الذى يعيبك فى الغيب، واللمزة الذى يعيبك فى الوجه وقيل: العكس"[١].

الجناس بين الهمزة واللمزة، وجاء الحرف المختلف فى أول الكلمة.

وقول بعضهم: **(رب وضى غير رضى)**.الوضى تخفيف الوضىء وهو وضاءة الوجه وحسن منظره، والرضى من يرضي الناس فعله وخلقه)

والمراد: عدم الاغترار بالمظهر دون النظر إلي الجوهر، والجناس بين كلمتى(وضى) و(رضى) والاختلاف فى الحرف الأول والحرفان متباعدان مخرجا.

ومنه فى الوسط؛ قوله تعالي: **(وَإِنَّهُ عَلَي ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)** (العاديات:٧-٨) والجناس بين شهيد وشديد والحرفان متباعدان فى المخارج.

وقد يقع الاختلاف فى آخر الكلمة كقول البحترى:

أَلِما فاتَ مِن تَلاقٍ تَلافٍ أم لِشاكٍ مِنَ الصَبابَةِ شافِ

أم هُوَ الدَمعُ عَن جَوي الحُبِّ بادٍ وَالجَوي فى جَوانِحِ الصَدرِ خافِ

---

١ التفسير الوسيط:٥/ ٥٠٤.

الجناس فى البيت الأول من الجناس اللاحق بين (تَلاقٍ) و(تَلافٍ) وبين (شاكٍ) و(شافٍ) والتلاقى: اللقاء، والتلافى: تدارك الأمر.

وفى البيت الثانى جناس ناقص مذيل زاد أحد اللفظين علي الآخر بحرفين، بين كلمتى جوي وجوانح.

٥- **جناس القلب:** وهو ما اختلف فيه اللفظان فى ترتيب الحروف؛ وهو نوعان:

أ- **قلب الكل:** وهو أن تكون حروف كل منهما علي عكس حروف الآخر؛كقولهم: (حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه)وبين كلمتى (حتف) و(فتح) قلب كل.

ويقول القاضى الأرجانى:

مودّته تدوم لكلّ هول وهل كلّ مودّته تدوم.

فعكس البيت كاملا، يمكن قراءة البيت من اليمين للشمال والعكس. ومثله قوله تعالي: **(كُلٌّ فِى فَلَكٍ)** (الأنبياء: ٣٣) والحقيقة العلمية أن الكون يسبح فى فلك يدور بعضه حول بعض؛ فـ"القمر يسبح فى فلك الأرض، والأرض وكل الكواكب يسبحون فى فلك واحد هو فلك الشمس، والمجموعة الشمسية ومجموعة من الأفلاك الأخري تسبح فى فلك المجرة، وتسبح مجرتنا فى فلك مركز هذه المجموعة وتسبح مجموعتنا حول مركز العنقود المحلى أو حشد المجرات المحلية"[1]، فقد

[1] مقال فى موقع إعجاز القرآن والسنة، بعنوان كل فى فلك ج٣.

تطابق اختيار المفردات المعبرة بدقة عن هذا الدائرة التى تسير بنظام محكم ولا تعرف أين طرف الحلقة، وهو ما عبرعنه جناس قلب الكلمات. ونحو قوله تعالي: **(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)**(المدثر:٣)، ومنه قول عماد الدين الكاتب للقاضى الفاضل: (**سر فلا كبا بك الفرس**)، وجواب القاضى الفاضل: دام علا العماد.

ب-قلب البعض: وهو أن تكون بعض حروف كل منهما علي عكس حروف الآخر؛ كدعائنا: **اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا.**

والروع: الحوف؛ وبين (عورة) و(روعة) قلب البعض.

ومنه قوله تعالي: **(قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى)** القصص:(٩٤).

وقع الناس بين كلمتى: (بين) و(بنى) وقلب بعض الكلمة.

قول الشاعر:

إن بين الضلوع منى نارا تتلظي فكيف لى أن أطيقا؟

فبحقى عليک يا من سقانى أرحيقا سقيتنى أم حريقا؟

فالجناس بين كلمتى (رحيقا) و(حريقا)؛ فالاختلاف هو فى ترتيب الحرفين الأولين منهما.

وقول بعضهم: **(رحم الله امرأ أمسک ما بين فكيه، وأطلق ما بين كفيه)**.

وعليه قول أبى الطيب المتنبى:

مُنَعَّمَةٌ مُمَنَّعَةٌ رَداحٌ يُكَلِّفُ لَفظُها الطّيرَ الوُقُوعَا

السمينة الكبيرة العجز، والوقوع: جلوس الطى؛ يقول: إنها منعمة ممنوعة الوصول إليها، سمينة حسنة الصوت والنطق، فلو سمع الطير لفظها فى الهواء لسقط علي الأرض، فكأن لفظها كلّف الطير الوقوع علي الأرض، وجناس قلب البعض بين مُنَعَّمَةٌ ومُمَنَّعَةٌ.

ومنه قول عبد الله بن رواحة فى مدح النبى صلي الله عليه وسلم:

تحمله الناقة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلي نوره الظلما

قيل هو أمدح بيت قالته العرب، والناقة الأدماء: البيضاء بياضا واضحا، ومعتجرا: من اعتجر العمامة لفها علي رأسه، والجناس المقلوب بين (البرد) وهو الثوب و (البدر).

وقول أبى تمام:

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

فالجناس بين (الصفائح) وهى السيوف العريضة و (الصحائف).

وقد ذكر البلاغيون للجناس أنواعا أخري علي حسب موقعه فى الجملة:

كالجناس المقلوب المجنح: ويكون إذا وقع فى المتجانسين جناس القلب فى أول البيت والآخر فى آخره؛ نحو قول ابن نباتة:

ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس

أى: وكل لفظ (ساق) إذا قلبته بعكس حروفه فهو (قاس)، وقد جاء أحدهما فى أول البيت والثانى فى طرفه.

والجناس المزدوج أو المكرر أو المردد: إذا ولى أحد المتجانسين الآخر؛ كقوله تعالي: **(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)** (النمل:٢٢)، فذكر سبأ ونبأ وفيهما جناس لاحق، وجناس مزدوج.

ومثله، ما ورد فى الأثر: **(المؤمنون هينون لينون)**، هينون فى معاملاتهم لينون فى حديثهم وحسن عشرتهم.

وقولهم: **من طلب وجد وجد**. أى: من اجتهد وجد جزاء اجتهاده.

وقول الشاعر:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

فى هذا البيت جناس ناقص مطرف وجناس مزدوج.

ما يلحق بالجناس

كما ذكروا أنواع أخري وأدخلوها تحت ما يلحق بالجناس؛ ومنه:

أ-جناس الاشتقاق: أن يكون اللفظان من أصل واحد كقوله تعالي: **(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)** (الروم:٤٣)

أى: إذا رأيت إعراض قومك بعد ظهور البراهين فأقم وجهك للدين، ولا تهتم لإعراضهم، وبين (أقم – القيم) جناش اشتقاق الأول فعل أمر والثانى صيغة مبالغة من القوامة، وأصلهما واحد وهو القيام.

وقوله تعالي: **(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)** (الواقعة:٨٨-٨٩)، وكلمتا (روح وريحان) مشتقتان من أصل واحد هو الروح.

وقوله تعالي: **(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)** (هود:١) وبين (أحكمت- حكيم) اشتقاق من حكم.

وقول النبى صلي الله عليه وسلم: **(اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)** (أخرجه الإمام مسلم)، فيكون ظلمات علي صاحبه لا يهتدى يوم القيامة سبيلا حين يسعي نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات.

وبين (الظلم وظلمات) اشتقاق من الظلم.

ومنه قول الشافعى رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ: **(أجمع أهل الحرمين علي تحريمه)**، وكلمتا (الحرمين وتحريمه) اشتقاق من الحرم.

وقول البحترى:

يعشَي عن المجد الغبىُ ولن تري فى سؤددٍ أربًا لغير أريب

يعشي: وهو ضعف الرؤية ليلا، وأراد يعمي، والقصد أنه لا يشغل به، وفيه كناية، السؤدد: رفعة القدر وكرم المنصب. أرب: غاية، ومأرب، أريب: عاقل لبيب، وبين (أرب وأريب) جناس اشتقاق.

ب-ما يشبه الاشتقاق : أن يتشابه اللفظان صوتا ويختلفا فى الأصل.

كقوله تعالي: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَي الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)** (التوبة:٣٨) وبين كلمتى (الأرض- أرضيتم) جناس ولكن ليس بينهم اشتقاق.

وقوله تعالي: **(قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)** (الشعراء:١٦٨)

وبين (قال) و(القالين)، جناس يشبه الاشتقاق فـ(قال) من القول، و(قالين) من قلي بمعني أبغض.

وقوله تعالي: **(مُتَّكِئِينَ عَلَي فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَي الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)** (الرحمن:٥٤) والجني: من الجنى أى قطف الثمر، والجنة من الجن بمعني الخفاء.

وقول البحترى:

وإذا ما رياح جودک هبت صار قول العذول فيها هباء

هبت: هاجت، وهى من هب يهب، والهباء: الغبار وهو من هبا يهبو، والجناس يشبه الاشتقاق ويوهم ذلک والركيزة الأولي فى الجناس تعتمد علي التماثل الصوتى بين الكلمتين، والأصل فى الجناس طلب المعني لهذا التماثل لا المجىء به هنا دون معني فإذا خلا من المعني أو لم يكن فى التكرار جديد فقد سقط المعني وساء اللفظ؛ يقول عبد القاهر:"إنه لا يخفي علي عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل علي اللسان اعتداد حتي يكون قد ألف منها كلام، ثم كان ذلک الكلام صحيحا

فى نظمه والغرض الذى أريد به، وأنه لو عمد عامد إلي ألفاظ فجمعها من غير أن يراعى فيها معني ويؤلف منها كلاما لم تر عاقلا يعتد السهولة فيها فضيلة؛ لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها وإنما تراد لتجعل أدلة علي المعانى"[1].

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى: ص ٣٧٩.

السجع/ الفواصل

السجع (لغة): يقول ابن فارس: السِّينُ وَالْجِيمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَي صَوْتٍ مُتَوَازِنٍ، وَيُقَالُ سَجَعَتِ الْحَمَامَةُ، إِذَا هَدَرَتْ"[1]، وهو من ترديد الحمام، وغيره من الطيور"فصوت العنادل والقمارى وذوات السجع من الطيور مع طيها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها"[2]، وفى اللسان: سَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعاً: اسْتَوَي وَاسْتَقَامَ وأشبه بَعْضُهُ بَعْضًا، وَالسَّجْعُ :الْكَلَامُ المُقَفَّي، وَالْجَمْعُ أسجاع وأساجِيعُ؛ وَكَلَامٌ مُسَجَّع . وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعاً وسَجَّعَ تَسْجِيعاً :تَكَلَّم بِكَلَامٍ لَهُ فَواصِلُ كفواصِلِ الشِّعْر مِنْ غَيْرِ وَزْنٍ، وصاحبُه سَجّاعةٌ ؛ قَالَ ابْنُ جِنِّى: سُمِّيَ سَجْعاً لِاشْتِبَاهِ أواخِره وَتَنَاسُبِ فواصله.[3]

(اصطلاحا): "هو تواطؤ الفاصلتين من النثر علي حرف واحد، وهو فى النثر كالقافية فى الشعر".

وقد استحسنها السكاكى؛ قائلا: "ومن جهات الحسن الأسجاع؛ وهى فى النثر، كما القوافى فى الشعر، ومن جهاته الفواصل القرآنية"، وهى نهاية الآيات القرآنية المتوافقة فى الحرف الأخير، واختلف فيه هل يقال فى فواصل القرآن أسجاع أو لا فمنهم من منعه ومنهم من أجازه والذى منع

---

١ مقاييس اللغة، (مادة:سجع).

٢نهاية الأرب للنويرى: ٤٤٧/١.

٣ لسان العرب: (مادة سجع).

تمسک بقوله تعالي: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)(فصلت:٣)؛ فقال قد سماه فواصل وليس لنا أن نتجاوز ذلک"[١] ، ويطلق السجع لشيوع المصطلح عند العرب؛ وكلمة السجع تحتمل السجع المحمود الذى يأتى لغرض بيان الحق، والسجع المذموم الذى يأتى لقلب الحق باطلا؛ وإسجاع القرآن وفواصله إنما طلبت المعانى ثم جاء السجع متناسقا معها، والفواصل من السجع المحمود؛ لذا يطلق أحيانا علي الفواصل السجع وهو الفرق الدقيق؛ كأنک عندما تقول فاصلة تساوى سجعا محمودا؛ فهى موجزة وخاصة بالنص القرآنى، ولاشتهار السجع كدرس تعليمى يغلب لفظ السجع علي الفواصل، فإذا جاء فى القرآن فالمراد به الفاصلة.

وبلغت عناية العرب بالسجع مبلغا جاء من جهة وقع الكلمة الأخيرة علي الأذن سواء فى الشعر أو النثر؛ "ألا تري أن العناية فى الشعر إنما هى بالقوافى؛ لأنها المقاطع وفى السجع كمثل ذلک؟ وآخر السجعة والقافية عندهم أشرف من أولها والعناية به أمس؛ ولذلک كلما تطرف الحرف فى القافية ازدادوا عناية به ومحافظة علي حكمه"[٢]

وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين حوارا للشاعر عبد الصمد بن الفضل بن عيسي الرقاشى(شاعر عباسى، توفى ٢٠٠هـ)، وكان يكثر من الأسجاع فى

---

١ خزانة الأدب:٤١١/٢.

[2] لسان العرب: ص ١١/٨.

كلامه؛ فقالوا له: "لم تؤثر السجع علي المنثور وتلزم نفسک القوافى وإقامة الوزن.

قال: إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليک، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر؛ فالحفظ اليه أسرع والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد، وبقلة التفلت، وما تكلّمَتْ به العرب من جيّد المنثور أكثر ممّا تكلّمَتْ به من جيّد الموزون، فلم يُحفَظْ من المنثور عُشرُهُ، ولا ضاع من الموزون عُشرُه.

قالوا: فقد قيل للذى قال يا رسول الله وذكروا حديث أبى هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّي اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَي فِى امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَي بِحَجَرٍ، فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِىَ حَامِلٌ، فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِى فِى بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَي النَّبِىِّ صَلَّي اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَي: أَنَّ دِيَةَ مَا فِى بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِىُّ المَرْأَةِ الَّتِى غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ أَكَلَ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِکَ يُطَلُّ، فَقَالَ النَّبِىُّ صَلَّي اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ)[1] (والغرة) فى الأصل بياض الوجه والمراد بها الجنين الذى سقط ميتا علي طريقة المجاز المرسل من إطلاق الجزء والمراد الكل، و(استهل) أول صياح المولود عند الولادة، و(يطل) يهدر ولا يطالب بديته، وفى رواية: (بطل) من البطلان.

[1] (رواه البخارى).

والمراد بقوله صلي الله عليه وسلم: (هذا) إشارة إلي ولى المرأة المدافع عنها بكلامه المسجوع، الذى يقلب الباطل حقا والحق باطل، وهو ما عرف عن الكهان، و(إخوان الكهان)؛ أى: لمشابهته لهم فى كلامهم الذى يزينونه بسجعهم فيردون به الحق ويقرون الباطل، والكهّان من الكهانة: وهى ادعاء علم الغيب والإخبار عما سيقع مستقبلا.

وذكروا رواية (أسجعا كسَجْع الكُهّان).

قال عبد الصمد: لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسي أن يكون أراد إبطالا لِحَقٍ فتشادق فى كلامه.[1]

مصطلحات السجع:

القرينة: هى الفقرة، وسميت الفقرة قرينة، لأنها تقارن أختها، وهى القطعة من الكلام التى تأتى موازية لقطعة أخري، وهى فى النثر تشبه البيت من الشعر، و**الفاصلة**: هى الكلمة الأخيرة فى الفقرة، وهى تشبه القافية من الشعر، **والروى**: الحرف الأخير من الفاصلة.

والأسجاع مبنية علي سكون أواخر الفواصل ولا يتم الجرس إلا بالسكون دون الحركات، وأحسن السجع ما تساوت فقراته فلا يزيد بعضها علي بعض.

[1] انظر/ البيان والتبيين:ص١٥٣.

أنواع السجع:

١-**السجعُ القصيرُ:** ماكانت قرينته قصيرة مكونة من كلمتين؛ كقوله تعالي: (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۞ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) (المرسلات:١-٢)

وقوله تعالي: **(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)** (المدثر:١-٧)

وقول النبى صلي الله عليه وسلم: **(أيُّها الناسُ أفشوا السلامَ وأطعِموا الطعامَ وصِلُوا الأرحامَ وصَلُّوا باللليلِ والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ)**[1]

يقول ابن الأثير عن السجع القصير: "وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا ولا يكاد استعماله يقع إلا نادرا"[2]، ويجمع البلاغيون علي أن السجع القصير أصعب جمعا وأقوي وقعا، وهو إلي النفوس أقرب.

٢-**السجعُ المتوسطُ:** مازاد عن ثلاثة وقل عن العشرة؛ كقوله تعالي: **(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)** (القمر: ١- ٢)

---

[1] (سنن ابن ماجه).

٢ المثل السائر:ص٢٣٥

والسجع بين كلمتى (الْقَمَرُ- مُسْتَمِرٌّ) والاتفاق فى الحرف الأخير من الفاصلة.

وقوله تعالي: **(إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا۞ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)** (الأحزاب:٦٤-٦٥)

والسجع بين كلمتى (سَعِيرًا- نَصِيرًا) والاتفاق فى وزن الفاصلة وفى الحرف الأخير منها.

وقوله تعالي: **(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ۞ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَي السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** (ق:٥-٧)

والسجع بين كلمات (مَرِيجٍ- فُرُوجٍ- بَهِيجٍ) والاتفاق فى الحرف الأخير من الفاصلة.

٣-السجعٌ الطويل: ما زاد عدد كلماته عن العشرة؛ كقوله تعالي: **(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ۞ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)** (هود:١٠-١١) والسجع بين كلمتى (فَخُورٌ- كَبِيرٌ) والاتفاق فى الحرف الأخير من الفاصلة.

وقوله تعالي : **(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۞ وَإِذْ**

يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَي اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) (الأنفال:٤٣-٤٤)

والسجع بين كلمتى (الصُّدُورِ - الْأُمُورُ) والاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة، والحرف الأخير من الفاصلة.

وقوله تعالي: **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)** (التوبة:١٢٨-١٢٩)

والسجع بين كلمتى (رَحِيمٌ - الْعَظِيمِ) والاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة، والحرف الأخير من الفاصلة.

أقسام السجع:

١-السجع المطرف:

أن يتوافق هذا النوع فى حرف الروى من الكلمة الأخيرة لكنهما يختلفان وزنا؛ نحو قوله تعالي: **(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)** (نوح:١٣-١٤) وسمى بذلک لأنه لا يقع الاتفاق إلا فى الطرف؛ أى فى الروى من القافية، وقد اختلفتا (الوقار) و(الأطوار) وزنا واتفقتا فى الحرف الأخير.

قال تعالي: **(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)**(النبأ:٦-٧)، ووقع السجع فى الطرف بين كلمتى (مهادًا وأوتادًا)؛ لتوافقهما فى الكلمة الأخيرة ولكنهما اختلفتا فى الوزن.

ومنه قول القائل: **(الإنسانُ بآدابِه، لا بزيِّهِ وثيابِه)**، وكذلك اختلفتا (آدابه وثيابه) وزنا واتفقتا فى الحرف الأخير.

ومذهب القائلين بوروده فى الشعر نذكر منه قول أبى تمام:

تَجلَّي بهِ رُشْدِى وأثْرَتْ بِه يَدِى و فاض يه ثِمدى وأوري يهِ زَندى

تجلي به رشدى: أى ظهر بهذا الممدوح بلوغ المقاصد، وأثرت به يدى: صارت ذات ثراء، والثمد بكسر الثاء وسكون الميم: هو فى الأصل الماء القليل، والمراد به هنا المال القليل، وأوري به زندى بفتح الزاى: أى صار ذا ورى، وهذا كناية عن الظفر بالمطلوب.

والأسجاع فى الحرف الأخير من كلمات: رشدى، يدى و ثمدى، زندى.

٢ – السجع المرصع:

وهو عبارة عن مقابلة كل لفظة من فقرة النثر أو صدر البيت بلفظة علي وزنها ورويها، ومن أمثلته فى القرآن الكريم؛ قوله تعالي: **(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)** (الغاشية:٢٥-٢٦)

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ

إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ

كل كلمة توافق أختها وزنا وقد تساوت الفقرات فى عددها، واتفقت القافية وزنا وتقفية وفى حرف الروى.

وهى تشبه العقد المرصع الذى تتساوى فيه كل حبة بما يقابلها فى الوزن والعدد.

ومنه قوله تعالي: **(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ)** (الانفطار:١٣-١٤)

وقول الحريرى فى: **(يَطبَعُ الأَسْجَاعَ بجواهِرِ لفظِه ويَقرَعُ الأسماعَ بزواجرِ وعْظِه).**

فقد اتفقت كلمات يَطبَعُ/يَقرَعُ – الأَسْجَاعَ/الأسماعَ- بجواهِرِ/ بزواجرِ- لفظِه/ وعْظِه،(فى الوزن والتقفية والحرف الأخير)

وقول الشاعر:

فيا يومها كم من مناف منافق ويا ليلها كم من مواف موافق

وقول ابن النبيه:

فحريق جمرة سيفه للمعتدى ورحيق خمرة سيبه للمعتفى

انظر كيف اتفقت كلمات الشطر الأول مع الثانى وزنا وتقفية فى البيتين السابقين.

٣ – السجع المتوازى:

وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة (الفقرة) مع أختها فى الوزن والروى؛ كقوله تعالي: **(فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)** (الواقعة:٣٠)

(مَخْضُودٍ- مَنْضُودٍ- مَمْدُودٍ) الاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة ورويِّها.

وقوله تعالي: **(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)** (الغاشية:١٣-١٤)

(مَرْفُوعَةٌ- مَوْضُوعَةٌ) الاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة ورويِّها.

وقوله تعالي فى السورة ذاتها: **(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَي الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَي السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَي الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَي الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)** (الغاشية:١٧-٢٠)

(خُلِقَتْ- رُفِعَتْ- نُصِبَتْ- سُطِحَتْ) الاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة ورويِّها.

ومنه قول الحريرى: **(الجأنى حكم دهر قاسط إلي أن أنتجع أرض واسط)**، بين (قاسط- واسط) الاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة ورويِّها.

وسئل حكيم عن أكرم الناس عِشْرة؛ فقال : مَنْ إذا قَرُب مَنَح، وإذا بَعُدَ مَدَح ، وإذا ضُويق سَمح.

وكلمات (مَنَح، مَدَح، سَمح) بينها اتفاق فى الوزن حرف الروى.

ومن الشعر قول أبى الطيب المتنبى:

فَنَحنُ فى جَذَلٍ والرّومُ فى وَجَلٍ وَالبَرُّ فى شُغُلٍ والبَحرُ فى خَجَل

الجذل: الفرح، والوجل: الخوف

والمعني: نحن فرحون بانتصاره، والروم فى خوف منه لغاراته وغزواته وقوته، والبر مشتغل بجيشه الجرار، والبحر فى خجل من غزارة كرمه وعطاء يده.

بين كلمتى (جذل- وجل) والاتفاق فى وزن الكلمة الأخيرة فى الشطر الأول ورويِّها.

٤-السجع المتوازن/ المتقارب: أن تتفق كلمتا الفاصلة فى الوزن وتختلف فى الروى

نحو قوله تعالي: **(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ۞ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)** (الصافات:١١٧-١١٨) والسجع متوازن بين كلمتى(الْمُسْتَبِينَ، والْمُسْتَقِيمَ)، الموافقة فى الوزن والاختلاف الروى من القافية.

وقال تعالي: **(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)** (الغاشية:١٥-١٦).

والسجع متوازن بين كلمتى (مصفوفة، ومبثوثة)، والأوزان هنا (مَفعولَة- مَفعولَة)، الموافقة فى الوزن والاختلاف الروى من القافية (الفاء-الثّاء) ولا عِبرة للتّاء فى القافية.

وقال تعالي: **(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ۞النَّجْمُ الثَّاقِبُ)** (الطارق:٢-٣).

والسجع متوازن بين كلمتى (الطَّارِقُ، الثَّاقِبُ)، الموافقة فى الوزن والاختلاف الروى من القافية.

٤- السجع المشطور: أن يكون لكل شطر من البيت قافيتان مغايرتان لقافية الشطر الثانى، وسمى مشطورا؛ لأن الشطر فى الشعر دون النثر، ومنه قول أبى تمام:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتغب فى الله مرتقب

فالشطر الأول بنيت قافيتة علي الميم بين كلمتى (معتصم، ومنتقم)، والشطر الثانى بنيت قافيتة علي الباء(مرتغب، و مرتقب).

سجع الكهان ومدعى النبوة

والعلاقة بين الجن والكهان قبل بعثة النبى صلي الله عليه وسلم مشهورة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِىِّ صَلَّي اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّي اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّ المَلاَئِكَةَ تَنْزِلُ فِى العَنَانِ: وَهُوَ السَّحَابُ، فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِىَ فِى السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلَي الكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ"[1]

واستراق الجن للسمع فى القرآن الكريم مذكور فى حديث الجن عن أنفسهم وأحوالهم التى تبدلت بعد بعثة النبى صلي الله عليه وسلم، وكان أمرا جديدا عليهم؛ قال تعالي حكاية عنهم:(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ

[1] (رواه البخارى).

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا۞ وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الجن:٨-١٠)

وهؤلاء الكهان كانوا يأخذون الخبر من الجن ويجعلون صياغته سجعا لتطرب له أذن السامع؛ فيجمع بين صدق بعضه وزخرفة قوله؛ ومن الكهان المأمور الحارثى، كاهن بنى الحارث بن كعب، وخُنافر الحميرى، وكان يقول: إنه أسلم بمشورة تابعه (شصار)، ومن أمثلة سجعهم قول عُزّي سَلِمة الذى وصفه الجاحظ بأنه أشجع الكهان: والأرض والسماء، والعُقَاب والصَّقْعاء، واقعة بِبَقعاء، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والثَّناء.

ومن الكاهنات الشعثاء وكاهنة ذى الخلصة والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية ومن قول كاهنة منهم تنذرهم بغارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الوادى ليَأْدُو خَتْلاً، ويَخْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذِر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً ".

والغريب أن تأثر كاتب نص السجع متأثر بالقرآن الكريم، فهل كان الكهان فى أول بعثة النبى صلي الله عليه وسلم وقد سمعوا القرآن الكريم فتأثروا ببيانه وصاغوا علي منواله، أم أن السجع قد ضاع وما بقى هو من وضع الوضاعين والكتاب، أم أن هناك خلطا واضحا بين قول الكهان وأسجاعهم وبين مدعى النبوة الذين ظهروا بعد الإسلام ونسجوا علي

منواله لجذب الأتباع، وعلي كل فهذه نماذج للغو فارغ يشبه ويماثل سجع الكهان.

ولما نزل القرآن أول الأمر فى مكة اعتمد علي قصر الآيات مع كثرة الفواصل ليسهل حفظه ويتحدي به العرب؛ لأن أصعب السجع ما قصرت فقره، فتحداهم ببيانه وجماله الصوتى المصاحب للمعني، بل كان له دور فى هدم سجع الكهان إذ جاء القرآن وقد بلغ السجع مبلغا عظيما، وكذلک الشعر والخطب، والعرب فى ذروة مجدهم فى الفصاحة فأعجزهم ببيانه ونفعِ كلامه.

وقد نفى القرآن عن بيانه الكهانة والسوء؛ فقال فى غير موضع: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ۞ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الحاقة: ٤١-٤٣)، وقال أيضا: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّکَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ)(الطور:٢٩)

جماليات السجع:

تطرب له الأذن مع علو المعني، وينبيه السامع إلي قيمة النص بهذه الألفاظ المسجوع، ولفت عنايته إلي النظر فى تقابل الفقرات، وله مواضعه فيكون مقامه عند حاجة المتكلم إلي الإقناع حينا وإلي الإمتاع حينا آخر.

ويجب أن يأتى السجع عفوا غير متكلف "فقد كان المتقدمون لا يحلفون بالسجع ولا يقصدونه بتة، إلا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام، واتفق عن غير قصد ولا اكتساب، وإنما كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم

متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متماثلة"[1]

ويضرب ابن الأثير مثالا لجودة السجع وقبحة وطريقة استحضاره فى الكلام وصياغته الصياغة المثلي؛ يقول: "إذا صورت فى نفسک معني من المعانى ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتک ذلک إلا بزيادة فى ذلک اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجا إلي الزيادة ولا إلي النقصان؛ إنما تفعل ذلک لأن المعني الذى قصدته يحتاج إلي لفظ يدل عليه وإذا دللت عليه بذلک اللفظ لا يكون مسجوعا إلا أن تضيف إليه شيئا آخر أو تنقص منه، فإذا فعلت ذلک فإنه هو الذى يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف، وأما إذا كان محمولا علي الطبع غير متكلف فإنه يجىء فى غاية الحسن وهو أعلي درجات الكلام"[2] ، وذلک بأن تكون المعانى علي قدر الألفاظ لا زيادة فيها ولا نقص، ولكن إذا زاد اللفظ عن المعني لإحداث السجع ظهر التكلف ووجه النقد إلي الكلام شعرا أو نثرا.

[1] تحرير التحبير: ص ٤١٥.

[2] المثل السائر: ص١٩٨.

رد الأعجاز على الصدور

من الفنون البديعية التى تأتى فى النثر والشعر علي حد سواء، ويعتمد فى جماله علي التكرار أو التكرار مع الجناس؛ بمعني أن يكون اللفظ مكررا دون جناس أو أن يقع الجناس بين اللفظين المكررين.

وتعريفه فى النثر: أنْ يَجْعَلَ المتكلِّمُ أحَدَ اللّفْظَيْنِ المكرَّرَين، أو المتجانسين أو مَا هو مُلْحقٌ بالمتجانِسَيْن فى أوّل الفقَرَة، والآخر فى آخِرِها.

ونحو قوله تعالي للنبى صلي الله عليه وسلم : **(وَتَخْشَي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ)** (الأحزاب:٣٧)، فقد تكرر اللفظ فى أول العبارة وفى آخرها، وهو القصد من رد العجز علي الصدر أى: رد أول الكلام أو الجملة علي آخرها تكرارا.

ومنه قوله تعالي: **(هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)** (آل عمران: ٨). فردَّ أول الكلام (هَبْ) علي آخره (الْوَهَّابُ).

ونحو قوله تعالي: **(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)** (الأنعام: ١٠).

ذكر لفظ الاستهزاء مرتين فقال فى أول الآية(اسْتُهْزِئَ) وفى آخرها (يَسْتَهْزِؤُنَ)، وهو يختلف عن فن الإرصاد لأن الإرصاد دوره أن يعد لفظة فى أول الكلام تنبئ عن آخره، وقد يجمع التركيب أكثر من فن لا تعارض فى هذا بل يعد من التفنن والإبداع، والأصل فى كل جمال

المعني ودقة اللفظ.وقد يعدل القرآن عن فاصلة معينة إذا رأي فى غيرها أفضل منها وأعلي بلاغة وتناسقا مع المعني العام "ومن ذلک قوله سبحانه: (وَإِذْ قالَ مُوسي لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ) (البقرة ٦٧). فربما وقع فى النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، وتتصل به، ولكنها جاءت تبرءوا من الجهل، وفى ذلک إشارة إلي أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذي خلق"[1].

ومنه ما قال نوح عليه السلام فى دعوته لقومه: **(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً)** (نوح:١٠) وهذا تكرار واللفظان بينهما اشتقاق من غفر.

وقوله تعالي: **(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلي بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)** (الإسراء:٢١).

ونحو قوله تعالي: **(قالَ لَهُمْ مُوسي وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَي اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَري)** (طه: ٦١).

ونحو: ما قاله لوط عليه السلام فى دعوته لقومه: **(قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ)** (الشعراء:١٦٨)، وقد مر ذكره فى جناس ما يشبه الاشتقاق، وهو لأن الأولي من قول، والثانى من قلي بمعني أبغض، ومراد هذا الفن ربط الاول بالآخر، وقرع السامع بلفظ يريد أن ينبهه إلي مركزيته فى الجملة

[1] من بلاغة القرآن، أحمد بدوى: ص٧٢.

ويدعوه إلي تدبره والعنايهٔ به، فإذا كان بين اللفظين جناس مع هذا الفن زادت حلاوته بإعادهٔ اللفظهٔ مع فائدهٔ جديدهٔ فى اختلاف المعني بين اللفظين.

وهذا الرد فيه ما يدل علي التناسق بين الفاصلهٔ ومقدم الآيهٔ تناسقا محكما، وهو أدعي لاستقرار المعني وقبوله عند السامع.

ورد الأعجاز علي الصدور تتنوع مواضعه فى الشعر: وهو أن يكون أحد اللّفظين المكرّرين، أو المتجانِسَيْن، أو ما هو مُلْحَقٌ بالمجانسين فى موضع من المواضع الآتيهٔ:

الصورهٔ الأولي: أن يكون أحدُهما فى أول البيت والثانى فى آخره؛ كقول البحترى:

ضَرَائِبُ أَبْدَعْتَهَا فِى السَّمَاحْ فَلَسْنا نَرَي لَكَ فِيها ضَرِيبا

الضرائب: جَمْعُ "ضَرِيبهٔ" وهى ما طُبِعَ عليه الإِنسان، الضَرِيب: المثيل، ذكر كلمهٔ ضرائب فى أول البيت وذكر فى آخره كلمهٔ ضريبا وهى مما يشبه الاشتقاق.

ويقول الشاعر:

دَعَانِى مِنْ مَلامِكُمَا سَفَاهاً فَدَاعِى الشَّوْقِ قَبْلَكُما دَعَانى

فذكر اللفظ (دَعَانِى) مرتين مرهٔ أوله ومرهٔ آخره؛ ومثله قول الأفيشر:

سَرِيعٌ إلي ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ خده وَلَيْسَ إلي دَاعِى النَّدَي بسَرِيعِ

فجاء بسريع مرهٔ فى أول البيت ومرهٔ فى آخره.

الصورة الثانية: أن تكون الكلمة الأولي فى آخر الشطر الأول، والثانية فى آخر الشطر الثانى؛قول الشاعر:

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ونحن فى حُفر الأحداث أحيانا

والمعني: لو أن المحبوب زارنا ونحن أموات لبعث فينا الروحَ من جديد بزيارته؛ فجاء بكلمة (أحيانا) مرة فى آخر الشطر الأول ومرة فى آخر الشطر الثانى مع اختلاف معناها، واللفظان متجانسان الأول: اسم وهى جمع حين، والثانى: فعل، من الحياة.

وقال الحريرى:

فَمَشْغُوفٌ بآياتِ الْمَثَانِى ومَفْتُونٌ برَنَّاتِ الْمَثَانِى

الأولي: هى آيات القرآن، والثانية: هى أوتار النغم، فجاء بكلمة المثانى مرة فى آخر الشطر الأول ومرة فى آخر الشطر الثانى مع اختلاف معناها.

ونحو قول أبى تمام:

وَمَنْ كَانَ بِالبِيضِ الكواعِبِ مُغْرَماً فَما زِلْتُ بِالبِيضِ القَواضِبِ مُغْرَمَا

الكواعِبُ: الجارية المكتملة الأنوثة، والبيض القواضب: السُّيوف؛ فجاء بكلمة مغرما مرة فى آخر الشطر الأول ومرة فى آخر الشطر الثانى.

الصورة الثالثة: أن يكون أحد اللفظين فى وسط الشطر الأول (حشوه)، والثانى فى آخر الشطر الثانى من البيت؛ يقول الثعالبى:

وإِذَا الْبَلاَبِلُ أفْصَحَتْ بِلُغَاتِهَا فَانْفِ الْبَلاَبِلَ باحْتِسَاءِ بَلاَبِلِ

البلابل الأولي فى حشو الشطر الأول، والثانية فى آخر البيت، وكلمة البلابل مذكورة ثلاث مرات بمعان مختلفة تجانسا؛ فالبلابل: الأولي جمع "بُلْبل" وهو طائر مشهور بصوته الجميل. والثانية جمع بِلْبَال: وهو الحزن، والثالثة: جمع بُلْبُلَةْ: وهى الخمر.

وقول الصِّمَة بن عبد الله القُشَيْرى:

أقولُ لِصَاحبى والعِيسُ تَهْوِى بِنَا بَيْنَ المُنِيفَةِ فالضِّمَار

تمَتعْ مِنْ شِميم عَرَارِ نجْدٍ فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ من عَرَارِ

العَرَار: وردة ناعمة صفراء جميلة الرَّائحة، وذكر عرار فى حشو الشطر الأول وأعادها فى آخر البيت.

الصورة الرابعة: أن يكون أحد اللفظين فى أول الشّطْر الثانى، والثانى فى آخِرِ البيت؛ كقول القاضى الأرّجانى:

أَمَّلْتُهُمْ ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ فَلاَحَ لى أنّ لَيْسَ فِيهِمْ فَلاَحْ

ذكر (فلاح) مرتين مرة فى أول الشطر الثانى ومرة فى آخره، والأولي بمعني ظهر، والثانية بمعني الخير.

نحو قول ذى الرّمّة:

أَلِمَّا عَلَي الدَّارِ الَّتِى لَوْ وَجَدْتُهَا بِهَا أَهْلُهَا مَا كَانَ وَحْشاً مَقِيلُهَا

وَإِنّ لَمْ يَكُنْ إلاَّ مُعَرَّجَ سَاعَةٍ قَلِيلاً فإنِّى نَافِعُ لى قَلِيلُهَا

أُلِمَّا: انْزِلاَ نُزُولاً قَلِيلاً، مُعَرَّج: عَرَّجَ بالمكان، إِذا نَزَل به، والمقيل: الموضع، أمر صاحبيه بزيارة دار حبيبه، ووجود أحبته ينفى وحستها، ولو كان النزول بها ساعة فإن هذا القليل نافع للشاعر لأنه يلقي فيه أحبته.

فذكر (قليلا) فى أول الشطر الثانى، وأعادها فى آخر البيت، وهو هنا يركز علي كثرة القليل إذا كان مع الأحبة وهو خير عنده من حرمانه منهم.

الصورة الخامسة: أن يكون أحد اللفظين فى حشو(وسط) الشطر الأول والثانى فى آخر الشطر نفسه؛ كقول المتنبى:

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرتِ أنت وهن منك أواهل

فقد خاطَب الشاعر منازل الأحبة قائلا لها: إن لها فى قلبه منزلةً لا تزول، وإن أقفرتْ تلك المنازل وخلت من ساكنيها وعفا عليها الدهر؛ فهى لاتزال بعد ساكنة فى قلبه، وكرر هنا اللفظ (منازل) فى وسط الشطر الأول ثم فى آخر الشطر نفسه وبين اللفظين جناس بين الأولي بمعني مكان السكن، والثانية بمعني المكانة والذكري.

لزوم مالا يلزم

هو أن يجيء قبل حرف الرَّوىِّ من الشعر، أو ما فى معناه من الفاصلة، بما ليس بلازم فى التقفية، ويُلتزم فى بيتين أو أكثر من (النظم) أو فى فاصلتين أو أكثر من (النثر)، فيكون الحرفان الأخيران متماثلين فى كلّ القوافى، أو الثلاثة الأخيرة، أو تكون الكلمات مع ذلك متماثلة الوزن، إلي غير ذلك من التزام ما ليس بلازم فى نظام التقفيات.

وهو تفنن من الشاعر أو الناثر أن يلتزم ما ليس بلازم منه، ومما يزيد هذا الفن حسنا وجمالا، والقصيدة العربية تلتزم حرف روى واحد فى كل أبيات القصيدة، فيأتى الشاعر ويلزم نفسه بحرف الروى مع حرف قبله أو أكثر حسب قدرته الفنية مع مراعاة المعانى حتي لا يسقط فى دائرة التكلف.

وقد جاء منه فى الكلام المنثور كثير، وفى القرآن الكريم، ومعروف أن القرآن يأتى بالأساليب المتنوعة التى تخدم غرض السياق والمستمع والمقام دون نظر إلي الجمال اللفظى؛ فجمال اللفظ يأتى تابع لمعانى النظم.

فمنه قوله تعالي: **(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)** (الضحي:٩-١٠) والالتزام جاء فى المماثلة بين (تَقْهَرْ وتَنْهَرْ) فى الوزن والتزام حرفين فى آخر الكلمات.

وقوله تعالي: **(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)** (الطور:٢٩-٣٠)

والالتزام جاء فى المماثلة بين (مَجْنُونٍ والْمَنُونِ) فى التزام ثلاثة أحرف فى آخر الكلمات.

وقوله تعالي: **(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ۞ فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ۞ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ)** (الواقعة:٢٧-٢٩)

والالتزام جاء فى المماثلة بين (مَخْضُودٍ ومَنْضُودٍ) فى الوزن والتزام ثلاثة أحرف فى آخر الكلمات.

ومنه قوله تعالي: **(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ۞ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ)** (الأعراف:٢٠١-٢٠٢)

والالتزام جاء فى المماثلة بين (مُّبْصِرُونَ ويُقْصِرُونَ) فى التزام ثلاثة أحرف فى آخر الكلمات.

ومنه: **(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ۞ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)** (ق:٢٧-٢٨) والالتزام جاء فى المماثلة بين (بَعِيدٍ وبِالْوَعِيدِ) فى التزام ثلاثة أحرف فى آخر الكلمات.

ومن لزوم ما لا يلزم فى الشعر

قول أبى نواس:

اِترُكِ الأَطلالَ لا تَعبَأ بِها إِنَّها مِن كُلِّ بُؤسٍ دانِيَه

وَاِشرَبِ الخَمرَ عَلي تَحريمِها إِنَّما دُنياكَ دارٌ فانِيَه

مِن عُقارٍ مَن رَآها قالَ لى صيدَتِ الشَمسُ لَنا فى باطِيَه

العُقَارُ : الخمرُ، العُقَارُ من كل شيء: خياره، الباطية : إناء من خشب، وقد التزم الشاعر مقطع (انيه) أربعة أحرف فى كلمة القافية، فى كلمات دانية وفانية وباطية.

ومنه قول عبد الله بن الزَّبير الأسدى فى المدح :

سَأَشْكُرُ عَمْراً مَا تَراخَتْ مَنِيَّتِى أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتيً غَيْرُ مَحْجُوب الْغِنَي عَنْ صَدِيقهِ ولا مُظْهرُ الشَّكْوي إذَا النَّعْلُ زلَّتِ

رَأي خَلَّتِى مِنْ حَيْثُ يَخْفَي مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَي عَيْنَيْهِ حَتَّي تَجَلَّتِ

لَمْ تُمْنَنْ: لم تنقطع، الخَلَّة: الحاجة والفقر، وقد التزام الشاعر اللام المشددة قبل حرف الروى.

كما التزم عروة بن أذينة (شاعر غزل) فى قصيدته مالا يلزم؛ يقول:

إِنَّ الَّتِى زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا خُلِقَتْ هَوَاكَ كمَا خُلِقْتَ هَوِيً لَهَا

إِنّى لَأكتُمُ فى الحَشا مِن حُبِّها وَجداً لَوَ اَصبَحَ فَوقَها لَأظَلَّها

وَيَبيتُ تَحتَ جَوانحى حُبٌّ لَها لَو كانَ تَحتَ فِراشِها لَأقَلَّها

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّها وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبى مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

وَإِذَا وَجَدْتَ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَي الْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

ومعني (باكرها) سبق إليها فى أول أحوالها، واللباقة: الحذق، ومعني أدقها وأجلها: أتي بها دقيقة جليلة، فما يستحب دقتها منها؛ مثل: الأنف والعين والثغر والخصر جعلها دقيقة، وما يستحب جلالتها منها؛ مثل: الساق والفخذ والعجز والصدر جعلها جليلة.

وقوله: (وإذا وجدت لها وساوس سلوة) يبين به استحكام حبها فى قلبه، وأنه كلما تداخله ضجر بدلالها ورفضها، حدت نفسه بالتسلى عنها والتصبر دونها، أقبلت دواعى الميل إليها، والأسباب المتسلطة علي قلبه والمشتملة علي لبه شافعة لها؛ فنزعت ما خطر بباله.

وقد بدا الْتزام الشاعر فى قصيدته باللام المشدّدة قبل حرف الروى الهاء.

وقد اهتم بهذا اللون من فنون البديع اللفظى أبو العلاء المعرى؛ فجمع ما وافق هذا الفن تحت عنوان عُرف باللُّزوميات أو لزوم مالا يلزم.

التصريع

وهو جعل العروض مقفاة تقفية كالضرب، و كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه.والعروض آخر تفعيلة فى الشطر الأول والضرب آخر تفعيلة فى البيت.

والتصريع فى الشعر كالسجع فى النثر، وهو مأخوذ من مصراع البيت، وقد اهتم النقاد القدامي بالتصريع ،وهو من الدلائل علي مقدرة الشاعر اللغوية والفنية.

وجمال التصريع فى النغمة التى يحدثها عند بدء القصيدة، وهو جانب من حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، وبخاصة إذا طلبه معني القصيدة ولم يتكلفه الشاعر.

ويقول ابو تمام عنه:

وتَقْفُو إلي الجَدْوَي بجَدْوَي وإنَّما يروقكَ بيتُ الشعرِ حينَ يصرعُ

يري من جمال مطلع القصيدة أن يصرع البيت، وهو القائل فى أشهر قصائده:

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

فصرَّع فى مطلع هذه القصيدة بين كلمتى (الكُتُبِ/ واللَّعبِ).

ومنه قول امرئ القيس فى مطلع قصيدته:

قفا نبک من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوي بين الدخول فحومل

فكلمتا (ومنزل- فحومل) علي وزن واحد ، والشاهد فى تقفية العروض والضرب فى اللام.

وكقول أبى فراس الحمدانى:

بأطراف المثقفة العوالى تفردنا بأوساط المعالى

والمثقّفة: المقوّمة، والعوالى: الرماح، والأوساط: جمع وسط الشىء وهو أفضل شىء فيه، فكلمتا (العوالى- المعالى) علي وزن واحد والشاهد فى تقفية العروض والضرب فى اللام.

وذكر ابن الأثير قول امرئ القيس:

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْراً فَأَجْمِلِى

وقال: فإن كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعني بنفسه غير محتاج إلي ما يليه، والتصريع بين (التَّدَلُّلِ/فَأَجْمِلِى)

وعليه ورد قول المتنبى:

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصيحٍ قالَ شِعْراً مُتَيَّمُ

المألوف من عادة الشعراء تقديم النسيب وهو ذكر الأحبة فى شعرهم، كلما مدحوا؛ فأنكر المتنبى هذه العادة، وقال: أكل فصيح يقول الشعر وهو متيم بالحب حتي يبدأ بالنسيب يعنى ليس الأمر علي هذا فلا نستمر علي هذه العادة، والتصريع بين كلمتى (المُقَدَّمُ/ مُتَيَّمُ)

ومن التصربع بيت أبى الطيب المتنبى:

مَغانى الشَعبِ طِيبًا فى المَغانى بِمَنزِلَةِ الرَبيعِ مِنَ الزَمانِ

يريد شعب بوان وهو موضعٌ كثير الشجر والمياه يعدّ من جنان الدنيا؛ يقول: منازل هذا المكان فى المنازل كالربيع فى الأزمنة يعنى أنها تفضل سائر الأمكنة طيبا كما يفضل الربيع سائر الأزمنة، والتصريع بين كلمتى (المَغانى/ الزَمانِ).

وهذا الفن كثير فى مطالع القصائد العربية ويأتى علي حاجة بناء القصيدة إليه؛ ويقول ابن سنان الخفاجى: "أن التصريع يحسن فى أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها"[1].

وأمثلته كثيرة وموقعه فى مطالع القصائد معروف، ومن نماذجه أيضا:

قول المتنبى-شاعر عباسى-:

علي قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى علي قدر الكرام المكارم

نجد أن القصيدة ميمية وقد انتهي الشطر الأول بحرف الميم.

وقال الأعشي-شاعر جاهلى-:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وفى هذه القصيدة انتهي الشطر الأول بحرف اللام والقصيدة لامية

وقول شوقى-شاعر حديث-:

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لـــى الصـــبا وأيام أنسى

فالصيدة سينية وقد انتهي الشطر الأول بالسين.

[1] سر الفصاحة، ص ١٨٩.

الاقتباس

الاقتباس(لغة): من الفعل قَبَسَ، يقال: قَبَسَتُ منهُ ناراً أقبَسَ قبساً، فاقبَسَنى أى أعطانى منهُ قبساً، واقتَبستُ منهُ علماً أيضا، أى: استَفَدتَهُ.[1]

واصطلاحا: أن يضمن الكلامُ شيئاً من القرآن أو الحديث لا علي أنه منه.

والاقتباس يقوى الغرض الذى نقل الشاعر أو الناثر الكلام لأجله، ويشير دائما إلي التكوين الثقافى للمقتبس وسعة اطلاعه.

ومنه قول ابن نباتة الخطيب: **"فيا أيها الغفلة المطرقون أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم لا تشفقون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون".**

مقتبس من قوله تعالي: (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات:٢٢-٢٣)

وكقول الأحوص:

إذَا رُمتُ عَنهَا سَلوَةً قالَ شَافِعٌ مِنَ الحُبِّ مِيعَادُ السُّلُوِّ المَقَابِرُ

سَتَبقَي لهَا فِى مُضمَرِ القَلبِ والحشَا سَرَيرَةُ وُدٍّ يَومَ تُبلَي السَّرَائِرُ

مقتبس من قوله تعالي: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ۞ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (الطارق:٩-١٠)

ومنه اقتباس البحترى من القرآن الكريم؛ يقول:

حَلَفتُ بالمَسعَي وبالخيفِ من منيً وبالبيت الحَرامِ العتيق

[1] لسان العرب، (مادة: قبس).

تحُجّه الأَركُب مَخشُوشةً ركبانُها من كُل فجٍّ عَمِيق

يُكَبِّرون الله لا مُخبِرٌ عن رَفثٍ مِنُهم ولا عَن فُسوق

والخيف: والخيف: ما ارتفع عن مسيل الوادى ولم يبلغ أن يكون جبلا، والأركب مخشوشة ركبانها: وهو البعير المخشوش وهُوَ مُشْتَقٌّ من خَشَّ فى الشَّىْءِ إذا دَخَلَ فيه.

وقد اقتبس الشاعر من سورة الحج جزءا من آية: (وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَي كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(الحج:٢٧)، كما اقتبس جزءا من قوله تعالي: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِى الْحَج) (البقرة :١٩٧)، واقتباسه هنا ليؤكد قسمه حيث قال: (حلفت) بكذا وكذا.

وقول أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى

لآل فريغون فى المكرمات يد أولا واعتذر أخيرا

إذا ما حللت بمغناهم رأيت نعيما وملكا كبيرا

مقتبس من قوله تعالي: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) (الإنسان:٢٠)

وقول الآخر:

قد جاءَ نَصر اللهِ والفتحُ وشَقَ عنا الظُلَمةَ الصبحُ

وهو مقتبس من قوله تعالي: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (النصر:١)

وقول الشاعر:

ومالى قُوةٌ تَنهاكَ عَنَى ولا آوى الي رُكنٍ شَدِيدِ

مقتبس من قول سيدنا لوط: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَي رُكْنٍ شَدِيدٍ) (هود:٨٠)

وقول الأبيوردى:

وقصائِدٍ مِثْلِ الرِّياضِ أَضَعْتُها فى باخِلٍ ضاعَتْ بِهِ الأحسابُ

فإذا تناشدها الرُّواةُ وأبصروالـ ـممدوح قالوا: ساحرٌ كَذّابُ

مقتبس من قوله تعالي: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَي بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ إِلَي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (غافر:٢٣-٢٤)

الاقتباس من الحديث النبوي الشريف

وكقول الحريرى: **"وكتمان الفقر زهادة وانتظار الفرج بالصبر عبادة فإن قوله انتظار الفرج بالصبر عبادة"**

مقتبس من الحديث الشريف: (انتظارُ الفرَجِ عبادةٌ)

وقول الحريرى أيضا: "قلنا شاهت الوجوه وقبح اللكع ومن يرجوه". شاهت الوجوه؛ أى: قبحت، واللكع هو اللئيم. مقتبس من حديث رسول الله ف يغزوة حنين إذ قال: "**شاهت الوجوه**، فما خلق الله منهم إنساناً إلاّ ملأ الله عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله، وقسم رسول الله صلي الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين."[1]

[1] (رواه مسلم).

ومنه قول البحترى:

أيا مُظهر الهجرانِ والمُضمِرَ الحُبا سَتَزدادُ حُباً إن أتيتَهُم غِبا

مقتبس من الحديث الشريف :(زُر غبا تزدد حباً)

وكقول ابن عبّاد:

قَالَ لِيْ إِنَّ رَقِيْبِيْ سَيِّئُ الْخُلْقِ فَدَارِهْ

قُلْتُ دَعْنِيْ وَجْهُكَ الْجَـ ـنَّةُ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهْ

رَقِيْبِيْ: حارِسى ،سَيِّئُ الْخُلْقِ: قبيحُ الطبع غليظُه، فَدَارِهْ: من المداراة والملاطفة، مقتبس من لفظ الحديث النبوى: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات).

وقال أبو جعفر الأندلسى الغرناطى:

لا تعاد الناس فى أوطانهم قلما يرعي غريب الوطن

وإذا ما شئت عيشا بينهم "خالق الناس بخلق حسن"

مقتبس من لفظ الحديث النبوى: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[1]

قول الشاعر:

أقول وقد رأيت له سحابا من الهجران مقبلة علينا

وقد سحت عزاليها بهطل "حوالينا الصدود ولا علينا"

[1])رواه الترمذى).

سح المطر: سال، والغوادى: السحب تنشأ صباحا جمع غاديۀ، والهطل: تتابع المطر وسيلانه، يقول: جاءت سحبه بمطر متتابع.

مقتبس من قول النبى صلي الله عليه وسلم فى دعائه: (اللهم حوالينا ، ولا علينا)[1]

[1])رواه البخارى).

التضمين

التضمين: لغة: ضمن الشيء أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع، والمضمن من الشعر، ما ضمنته بيتاً.[1]

واصطلاحا: هو أن يضمن الشعر شيئا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء.

وقد يقع التضمين فى بيت أو شطر أبعض شطر؛ ومن التضمين قول الشاعر:

كانت بلهنية الشبيبة سكرة فصحوت واستبدلت سيرة مجمل

وقعدت أنتظر الفناء كراكب عرف المحل فبات دون المنزل

البيت الثانى لمسلم بن الوليد الأنصارى.

وقول عبد القاهر بن طاهر التميمى:

إذا ضاق صدرى وخفت العدي تمثلت بيتا بحالى يليق

فبالله أبلغ ما أرتجى وبالله ادفع ما لا أطيق

وقول الشاعر (تمثلت) يعنى أنه من التضمين، فإذا ضمنه شطرا أوبيتا ليس مشهورا نبه عليه، وإلا عد سرقة واتهم بها، أما إذا كان البيت أو الشطر مشهور فلا ينبه عليه، وإن نبه مع الشهرة كان تأكيدا منه.

وقول ابن العميد:

وَصَاحِبٍ كُنْتُ مَغْبوطاً بِصُحْبَتِه دَهْراً فَغَادَرَنِى فَرْداً بِلاَ سَكَنِ

[1] (لسان العرب: مادة ضمن).

هَبَّتْ لَهْ رِيحُ إقْبَالٍ فَطَارَ بِهَا نَحْوَ السُّرُور وَأَلْجانِى إلَي الْحَزَنِ
كَأَنَّهُ كَانَ مَطْوِيّاً عَلَي إِحَنٍ وَلَمْ يَكُنْ فِى ضُرُوبِ الشِّعْرِ أَنْشَدَنِى
"إِنَّ الكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِى الْمَنْزِل الْخَشِنِ"

البيت الأخير لأبى تمام، وقد نبّه الشاعر علي التضمين بقوله: "ولم يكن فى ضروب الشِّعْرِ أَنْشَدَنى".

وقد يضمن الشاعر شعره شطرا من شعر غيره، ومن هذا التضمين قول الحريرى:

عَلَي أَنِّى سَأَنْشِدُ عِنْدَ بَيْعى "أضَاعُونِى وَأَىَّ فَتيً أضَاعُوا"

المصراع (الشطر) الأخير لِلْعَرْجِي، وبيت العرجي هو:

أضاعونى وأىَ فَتيً أضَاعُوا لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

وأحْسَنُ التضمين ما زاد علي الأصل أمراً حسناً، كتوريهٔ، أو تشبيه، ومنه قول ابن أبى الإِصبع مستغلاً شعر المتنبى لمعني آخر غير الذى قصده:

إِذَا الْوَهْمُ أَبْدَي لِى لَمَاهَا وثَغْرَهَا "تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وبَارِقِ"
وَيُذْكِرونى مِنْ قَدِّهَا وَمَدامِعِى "مَجَرُّ عَوَالِينَا وَمَجْرَي السَّوابِقِ"

الشطران الأخيران فى البيتين مطلع قصيدهٔ للمتنبّى يمدح بها سيف الدولهٔ، ولم يُنَبّه ابن أبى الإِصبع علي التضمين؛ لأن قصيدهٔ المتنبّى مشهورهٔ عند المشتغلين بالأدب.

الْعُذَيب وبَارِق: موضعان بظاهر الكوفة مَجَرُّ عَوَالينا: أى: مكان جرّ الرماح، وحركة جرّها. ومَجْري السَّوابق: أى: مكان جرى الخيل السوابق، وحركةُ جريها.

فأخذ ابن أبى الإِصبع من "الْعُذَيْب" معني عذوبة ريق صاحبته، وأخذ من "بَارِق" البريق الذى يُرَي من ثغرها، علي سبيل التورية.

وشبّه قدّها بحركة جرّ الرّماح، وشبّه جريان دمعهِ بِجَرْيِ الخيل السوابق.[1]

وقد يضمن الشاعر شعره بعض شطر، كقصيدة يبدأ فيها شاعر معاصر بمطلع طللى يحاكى فيه النابغة؛ يقول:

يا دار "ميّة" جادت بالدموع يدى ردّى سؤالى، هل فى الدار من أحد

وهذا المطلع مأخوذ من مطلع النابغة الذبيانى الذى يقول:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقفت فيها أصيلانا أسائلها أعيت جوابا وما فى الربع من أحد

[1] انظر/ البلاغة العربية، للميدانى: ص٨٦٦.

العقد

العقد: هو نظم النثر؛ أى: أن ينظم الشاعر النثر لا علي طريق الاقتباس.

-عقد القرآن.

كقول الشاعر:

أنلنى بالذى استقرضت خطا وأشهد معشرا قد شاهدوه

فإن الله خلاق البرايا عنت لجلال هيبته الوجوه

يقول إذا تداينتم بدين إلي أجل مسمي فاكتبوه

معقود من قوله تعالي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَي أَجَلٍ مُسَمًّي فَاكْتُبُوهُ) (البقرة:٢٨٢)، حيث يحول الشاعر المنثور إلي منظوم.

-عقد الحديث:

ما ذكر الشافعى رضى الله عنه:

عمدة الخير عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية

اتق المشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيک واعملن بنية

عقد من عدة أحاديث ذكرها رسول الله صلي الله عليه وسلم صاغها الشاعر شعرا: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات)، وقوله: (ازهد فى الدنيا يحبک الله)، وقوله: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وقوله: (إنما الأعمال بالنيات.

-عقد الأقوال والنثر؛ كقول أبى العتاهية:

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

عقد قول على رضى الله عنه: وما لابن آدم والفخر، وإنما أوله نطفة، وآخره جيفة. ، فعقد المنثور من الاقوال وجعله شعرا.

وقول أبى العتاهية أيضاً:

وَكَانَتْ فِى حَيَاتِکَ لِى عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْکَ حَيّاً

عقَدَ فى هذا البيت قول بعض الحكماء فى الإِسْكَنْدَرِ لمّا مات: كَانَ الْمَلِکُ أَمْسِ أَنْطَقَ مِنْهُ الْيَوْم، وهُوَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْهُ أَمْسِ"، فعقد المنثور من الأقوال وجعله شعرا

الحل

أن ينثر الكاتب شعرا لغيره، فيحول الشعر إلي نثر مع مراعاة جمال الأسلوب وجزالته ورقته وأثره.

يقول أحدهم فى شخص سيئ الظن حيث يقيس غيره علي نفسه:

"فَإِنَّهُ لَمَّا قَبُحَتْ فَعَلاتُهُ، وَحَنْظَلَتْ نَخَلاتُهُ، لَمْ يَزَلْ سُوءُ الظَّنِّ يَقْتَادُهُ، وَيُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ فى الّذِى يَعْتَادُه".

حل الناثر شعر أبى الطيب المتنبّى الذى يقول فيه:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّم

أى: ما يتوهُّمُه من أنّ الآخرين أساءوا يُصَدِّقُ توهُّمَهُ فيهم، لأَنَّهُ يقيسُهم علي نفسه، وما يَعْتَادُه من سوء عَمَل.

ويقول الناثر فى وصف قلم كاتب:

"فَلاَ تَحْظَي بِهِ دَوْلَةٌ إِلاَّ فَخَرَتْ عَلَي الدُّوَل، وَغَنِيَتْ بِهِ عَنِ الْخَيْلِ والْخَوَل، وَقَالَ: أَعْلَي الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَي عَلَي الأَقْلاَمِ لاَ عَلَي الأَسَل".

حل الكاتب قول أبى الطيب مع رد مقالته ورفضها إذ رأى أن الممالك تبني علي العلم لا علي الحروب؛ يقول أبى الطيب:

"أَعْلَي الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَي عَلَي الأَسَلِ" وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبَلِ.

التَّلْمِيح

وهو أن يُشِيرُ الناثر أو الشاعر إلي قصة أو شعْرٍ أو نثرٍ ذكر ما أشار إليّه.

ومنه قول أبى تَمَّام:

لَحِقْنَا بِأُخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَّمَ الْهَوَي قُلُوباً عَهِدْنَا طَيْرَهَا وَهْىَ وُقَّعُ

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِدْرِ تَطْلُعُ

نَضَا ضَوْءُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَي لِبَهْجَتِهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ الْمُجَزَّعُ

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى أَأَحْلاَمُ نَائِمٍ أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِى الرَّكْبِ يُوشَعُ

فقد أشار إلي قصّة يُوشع عليه السلام علي ما رُوى أنّه قاتل الجبّارين يوم الجمعة، فلمَّا أدبَرَتِ الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم، ويدخل السبت فلا يحلّ له قتالهم، فدعا الله عزَّ وجلَّ فردّ له الشمس حتّي فرغ من قتالهم.

ومنه قول أبى تمّام أيضاً:

لَعَمْرُو مَعَ الرَّمْضَاءِ وَالنَّارُ تَلْتَظِى أَرَقُّ وَأَحْفَي مِنْكَ فى سَاعَةِ الْكَرْبِ

يشير إلي البيت المشهور:

الْمُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ كَالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

وقصة ذلك أنّ عمرواً تَرصَّدَ كُلَيْباً حتي ابتعد عن الحمي، فركب فرسه فأتبعه فرمَي صُلْبَهُ، ثُمَّ وقَفَ عليه فقال له: يا عَمْرو أغِثْنى بِشَرْبَةِ ماءٍ فَأَجْهَزَ عليه، فمات، فقيل هذا البيت، فقد كان يستجير به ليشرب فقتله وقضي عليه وصار مثلا؛ كالمستجير من هول إلي هول أشد وأقسي.

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة.
- أوضح التفاسير، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط٦، عام ١٩٦٤م.
- الإيضاح فى علوم البلاغة، جلال الدين القزوينى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م.
- البحث البلاغى عند العرب، د. شفيع السيد، دار الفكر العربى، القاهرة.
- البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، ت: أحمد عبد الله القرشى رسلان، د.حسن عباس زكى، القاهرة، ط ١٤١٩هـ
- البديع، لعبدالله بن المعتز، عناية وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى، ط مكتبة المثني، بغداد، ١٩٦٧م.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميدانى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٩٩٦ م
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: فوزى عطوى، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
- تاريخ النقد الأدبى عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٤، عام ١٩٨٣ م،

- تحرير التحبير، فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبى الإصبع المصرى، تحقيق: حفنى محمد شرف وإشراف محمد توفيق، لجنة احياء التراث الإسلامى.
- جوهر الكنز، ابن الاثير الحلبى، تحقيق: د.محمد زغلول سلام، شركة الاسكندرية للطباعة والنشر.
- الحلة السيرا فى مدح خير الوري، ابن جابر الأندلسى، تحقيق على أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، دمشق ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٤٢.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعانى، د. محمد محمد أبوموسي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧.
- خصائص النظم فى (خصائص العربية)، لأبى الفتح عثمان بن جنى، حسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجىُ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
- الخصائص، لابن جنى، ت: محمد على النجار، عالم الكتب، بيروت.
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى، ت: د.محمد التنجى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط١، عام١٩٩٥م.
- زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى.
- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجى، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٢م.
- شرح ديوان المتنبى، عبد الرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربى، ط١، ١٩٨٦م.

- شرح عقود الجمان فى المعانى والبيان: جلال الدين السيوطى، ت: إبراهيم الحمدانى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١١م.
- سنن ابن ماجه، ت:محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسي البابى الحلبى، القاهرة
- صحيح الإمام البخارى، ت:محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة.
- صحيح الإمام مسلم، ت:محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
- الصناعتين، أبو هلال العسكرى، على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ
- علم البديع دراسة تاريخيه وفنيه لأصول البلاغه ومسائل البديع، د.بسيونى عبد الفتاح، دار المعرفة ومؤسسة المختار، مصر.
- علم البديع: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، ت: د.مهدى المخزومى، ود.إبراهيم السامرائى، دار ومكتبة الهلال.
- الكشاف، للزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٤٠٧ هـ
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ، بيروت، ط١.
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين الأثير، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٩٥م.

- مجموع فتاوي ابن عثيمين، ت:فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن، عام ١٤١٣هـ
- معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مجدى وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكى، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٧ م.
- المفصل فى علوم البلاغة العربية، عيسي على العاكوب، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ص ٦٠٧.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلى البدوى، نهضه مصر، القاهرة، عام ٢٠٠٥م.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب، للنويرى، تمفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فى علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف، فخر الدين الرازى، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

مقدمة

التمهيد: نبذة عن المصطلح البديعي ٦

الفصل الأول: فنون البديع المعنوي ١٨

الطباق ١٩

المقابلة ٢٥

التورية ٢٨

التوجيه ٣٥

تجاهل العارف ٤٠

الإرصاد ٤٤

مراعاة النظير ٤٩

تشابه الأطراف ٥٣

المشاكلة ٥٨

حسن التعليل ٦٤

اللف والنشر ٧٣

المذهب الكلامي ٨١

تأكيد المدح بما يشبه الذم ٨٩

تأكيد الذم بما يشبه المدح ٩٤

الأسلوب الحكيم ٩٦

الفصل الثاني: فنون البديع اللفظي ١٠٠

الجناس ١٠٣

السجع/ الفواصل ١٢٣

رد الأعجاز على الصدور ١٣٨

لزوم ما لا يلزم ١٤٤

التصريع ١٤٨

الاقتباس ١٥١

التضمين ١٥٦

العقد ١٥٩

الحل ١٦١
التلميح ١٦٨